الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مطبوعة في مقياس علم القرآن

محاضرات في علم القرآن

– مطابقة لمفردات برنامج السداسي الأول للسنة الأولى (نظام ل م د) –

إعداد: د/ عبد العزيز لعيادي

السنة الدراسية 2022/2021.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة:

القرآن هو الكتاب المنزل على النبي محمد " صلى الله عليه وسلم" لهداية الناس جميعًا، عربهم وعجمهم وأبيضهم وأسودهم وحاضرهم وباديهم، وكان من سنة الله تعالى أن يبقى هذا الكتاب مادامت السموات والأرض حتى يستطيع آخر إنسان يعيش على وجه الأرض التعرف على دين الله، والاهتداء إلى الصحيح الصالح الذي فيه سعادته في الدنيا والآخرة، والنبي "صلى الله عليه وسلم" عاش ثلاثة وعشرين عاما نموذجًا حيّا لتعاليم القرآن، ونجح في تربية أصحابه وتهذيبهم حتى صاروا أحسن أمة في تلك القرون، وقد قدموا للعالم رصيدًا فكريّا في العلوم والثقافة والحضارة، استمدوه من ضمن آيات القرآن وأحكامه.

ومن مزايا الكتاب المنزل أنه يحتوي على عناصر كثيرة للدلالة على إعجازه وإحاطته اللتين يطمئن إليهما المؤمنون وتزيدهم إيمانًا، ويتأثر بهما المشككون وتقنعهم بعظمته وقدسيته، وهذا بفضل الإعجاز الذي يتمثل في ألفاظه وتراكيبه ومعانيه..، وإحاطته التي وفّت بما مضى واستوعبت الحاضر، وضرورة ستهيمن على المستقبل الإنساني حتى منتهاه.. وعلى هذا الأساس توجه المسلمون الأُول بدراساتهم وبحوثهم نحو القرآن، وأولوه كامل الاهتمام والعناية، ولا يزالون كذلك.

ومن ثمّ ظهرت الدّراسات والبحوث التي تهتم بالقرآن وموضوعاته وما يتعلّق به منذ فجر الإسلام، وُسِميت ب "علوم القرآن" زمن تكوّن العلوم وظهور الفنون وتدوينها. ولايزال هذا العلم إلى اليوم محطّ اهتمام الباحثين والدارسين والعلماء على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم,

وتأتي هذه المحاضرات في علوم القرآن، والتي أصلها مجموعة دروس قدّمت – على شكل محاضرات – في السداسي الأول للسنة الأولى من قسم اللغة والأدب العربي بكلية الآداب واللغات – جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 – على مدى سنوات عدّة، في سياق التعريف بعلوم القرآن ومدى أهميتها وضرورتها للمتخصصين في الدراسات اللغوية والأدبية.

وأعترف أنني لم أضف شيئا فيما كتبت، ولم آت بالجديد فيما نسّقت، وإنّما اكتفيت بعرض المادة العلمية، كما جاءت في مصادرها، باذلا جهدي في تبسيط هذه المادة، تيسيرا لطلابنا، ومساعدة لهم على حسن الفهم، وسعة الاستيعاب، واختصرت ما اعتقدت أنه بحاجة إلى اختصار، وأوجزت ما رأيت أنه يحتاج لإيجاز، وتوسعت في مباحث توقعت أن تكون مفيدة. وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد المتواضع.

المحاضرة الأولى: بين يدي علوم القرآن؛ مفهوما وموضوعا

تعريف "علوم القرآن"

ولتعريف علوم القرآن كفن مستقلّ وعلم قائم بذاته، لا بد قبل ذلك من تفكيك هذا التركيب الإضافي ورصد التعريف بعناصره عند أهل هذا الفن:

1- **تعريف العلوم** :

تعريف العلوم في اللغة : جمع عِلْمٍ من عَلِمَ يَعْلَمُ علمًا. قال ابن فارس في المقاييس يبيّن أصل معاني هذه المادة: "العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلّ على أثرٍ بالشيء يتميّز به عن غيره" وقد ذكروا من معاني هذه الكلمة التي لا تخرج في مجملها عن الأصل الذي ذكره ابن فارس المعرفة واليقين والشعور والإتقان والإخبار والشقّ والبروز واللاّفت والأثر والمنار والجبل الطويل والعلامة . وأكثر ما تستعمل هذه المادة في المعنيين الأولين: المعرفة واليقين ولهذا قالوا أيضا في تعريفه هو نقيض الجهل...[1]

تعريف العلم في الاصطلاح: أما في الاصطلاح فقد اختلفت تعريفات العلم والعلوم تبعا لاختلاف التخصصات التي ينطلق منها المعرِّف، فهي من اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات.

عرّفه علماء الشريعة بقولهم: "العلم بالله تعالى وما يتعلق به من جليل صفاته وحكيم أفعاله، ومعرفة حلاله وحرامه."

يلاحظ في هذا التعريف أنّ أصحابه إنّما عنوا في تعريفهم ما يتعلق بعلوم الدين الإسلامي بشقيه العقدي العلمي والتشريعي العملي، لأنّه مجال اختصاصهم وميدان عملهم .

وعرّفه المتكلمون بقولهم: " صفة تنكشف بها الأشياء لما قامت به".

بينما هو عند الفلاسفة والحكماء: "صورة الشيء الحاصلة في العقل ".

وهو عند الماديين والتجريبيين: "خصوص اليقينيات التي تستند إلى الحسّ".

فانظر كيف حصر الفلاسفة العلم بما يحصل في العقل لأنّ سبيل العلم والمعرفة عندهم يختصّ به دون غيره من الوسائل بينما خصّه الماديّون بالحسّ دون سواه فلا يقع مسمى العلم عندهم إلاّ على ما تدركه الحواس ويخضع للتجريب والاختبار والمعاينة ولم يخصّه المتكلمون بوسيلة دون أخرى فهو يقع عندهم بالوحي والعقل والحواس...

وقد يطلق العلم ويقصد به الملكة التي بها تدرك وتحصّل المسائل أو ملكة إدراكها أو استرجاعها واستحضارها...

والذي يعنينا ويهمنا من هذه التعريفات كلّها هو اصطلاح العلم عند علماء الجمع والتدوين، وهو عندهم "جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة"سواء كانت هذه الجهة مادة العلم أو غايته أو منهجه[2]..

---

[1] انظر مقاييس اللغة لابن فارس. دار الفكر ص689، مجمل اللغة له، دار الفكر ص480. أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، دار الفكر ص434. العين للخليل بن أحمد، إحياء التراث العربي ص675-676. المصباح المنير للفيومي دار لبنان ص401-402. مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، مؤسسة الرسالة ص162

[2] انظر مناهل العرفان ص15-16. مدخل إلى دراسة القرآن لأبي شهبة ص16-17

2- تعريف القرآن :

تعريف القرآن في اللغة: اختلف فيه أهل العلم من جهات عدّة أوّلا من جهة كونه مهموزا أو لا ومن جهة كونه مصدرا أو صفة ومن جهة كونه جامدا أو مشتقا وقد تعدّدت المذاهب فيه والآراء انطلاقا من هذه الجهات والحيثيات الثلاث حتى وصلت إلى ما يقارب العشرة وها هنا تفصيل بعض هذه المذاهب منسوبة إلى أصحابها:

- الحِّياني والجوهري والراغب الأصفهاني وابن الأثير يرون بأنّه مهموز وأنّه مصدر من قرأ قرأت قرآنا سُمِّي به المقروء من باب تسمية اسم المفعول بالمصدر[1] ، يشهد لهم قوله تعالى: (وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا) - الإسراء 87- فقد ذكر غير واحد من المفسرين أنّ المقصود بالقرآن ها هنا القراءة ومثله قول حسان في عثمان رضي الله عنهم أجمعين :

ضحَّوا بأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجود بهِ يُقَطِّعُ الليل تسبيحا وقُرآناً. (أي قراءةً)[2]

- بينما يرى الزجاج وأبو عبيدة ورواية عن قطرب وذكره الماوردي في تفسيره والراغب في مفرداته أنّه مهموز ولكنه وصف على وزن فُعْلان وليس مصدرا وهو عنده مشتق من القُرء بمعنى الجمع، قال أبو إسحاق القُرء في اللغة بمعنى الجمع. قال الماوردي ولهذا سمي قُرء العِدّة قرءاً؛ لاجتماع دم الحيض في الرحم، وعن قطرب: قرأت الماء في الحوض: أي جمعته، وقرأت القرآن: لفظت به مجموعا . وقال أبو عبيدة: سمي بذلك لأنّه جمع السور بعضها إلى بعض. وقيل لأنّه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض وعن الراغب قول بعضهم: سمي قرآنا لكونه جامعاً لثمرات الكتب بل لجمعه ثمرة جميع العلوم[3].

- وقال قطرب في روايته الثانية بالهمز كذلك ولكنه عنده من الإظهار والبيان، أخذه من قول العرب: ما قرأتْ الناقة سلاً قطّ، أي ما ألقت ولا رمت بولدٍ. ووجه التشبيه بين الإطلاقين والتعبيرين: أنّ قارئ القرآن يلفظه ويلقيه من فمه، فسمي قرآناً[4].

- ونسب للأشعري قوله بأنه غير مهموز وأنّه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه[5].

- ونسب الزركشي للجوهري أنّه غير مهموز ومشتق من القَرْي وهو الجمع ومنه قولهم قريتُ الماءَ في الحوضِ إذا جمعته فيه[6]. قال السمين الحلبي: "وهو غلط لأنّهما مادتان متغايرتان"[7] .

- ونسب للفراء والقرطبي قولهم بعدم الهمز وبالاشتقاق من القرائن؛ لأنّ الآيات يصدق بعضها بعضا وتتشابه[8]. قال

---

[1] انظر الصحاح (قرأ) 1\65 المفردات (قرأ) 668 النهاية في غريب الحديث والأثر (قرأ) 4\30 الإتقان 1\146-147

[2] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير ص33

[3] المرجع نفسه 34-35

[4] الإتقان 1\147

[5] البرهان 1\374 الإتقان 1\146

[6] البرهان1\373

[7] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير35 – 36

[8] الإتقان 1\146- البرهان1\374

الزجاج معترضا على القول بعدم الهمز : "هذا سهو، والصحيح أنّ ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها"[1].

– ومذهب الإمام الشافعي أنّ لفظ القرآن مرتجل جامد غير مشتق فهو اسم علم غير مهموز خاص بكلام الله مثل التوراة والإنجيل وليس مأخوذا من لفظ قرأ لا مصدرا ولا وصفا بدليل أنّه لا يسمى كلّ مقروء قرآنا إلاّ كلام الله وقد اختار الإمام السيوطي هذا الرأي. قال الأستاذ محمد صفاء معلقا ومتعقبا مذهب الشافعي:" ويعترض على هذا الرأي بأنّ العَلَم المرتَجل نادر جداً، وأنّ الغالب في الأعلام أنّها منقولة، بل ذهب سيبويه إلى أنّ الأعلام كلّها منقولة، كما يعترض عليه بأنّ معظم القراء السبعة قرأوا لفظ (القرآن) بالهمز"[2].

– الخلاصة :من خلال هذه الأقوال جميعها وترجيحات جلّ من ناقش المسألة[3]: فإنّ الراجح في لفظ القرآن أنّه مشتق سواء قلنا بالوصف أو المصدرية وأصل اشتقاقه مادة (ق ر أ) التي من أهمّ معانيها التلاوة والجمع. ثمّ غلب على كلام الله عزّ وجلّ المتواتر المجموع بين دفتي المصحف حتى صار كالعَلَم عليه، إذا أطلق اللفظ توجّه إليه دون سواه، أما مسألة الهمز من عدمه فالأمر متعلق والله أعلم بلغات العرب فبعضهم يحقق الهمز على الأصل وبعضهم الآخر يسهّله للتخفيف، ونقل الهمز في لفظ القرآن الكريم من هذا التسهيل وهو لغة الحجاز والشافعي عليه رحمة الله مكي حجازيّ كما هو معلوم...

تعريف القرآن في الاصطلاح: لقد عرّف القرآن –كما رأينا – بتعريفات كثيرة وهذه التعريفات كلها تصب في قالب واحد لكن كل واحد من أهل العلم يلحظ ملحظاً معيناً في تعريف القرآن الكريم لا يلحظه الآخر, والتدقيق في التعريفات وإعطاؤها أكثر مما تستحق ليس من طريقة السلف لأن السلف – رحمهم الله– كانوا يُعنون بالحقائق أكثر من التعريفات. فالتعريف إنما يراد به التوصل إلى معرفة حقيقة الشيء ولذلك كان السلف يعرّفون بالمثال أحياناً ولا يضطرون إلى التعريف الذي يُعرف عند المناطقة بالحدّ بمعنى أن يكون التعريف جامعاً لأجزاء المحدود مانعاً من دخول غيره فيه وعليه فنحن نختار هذا التعريف الذي نراه سهلاً وينطبق على القرآن الكريم انطباقاً جيداً.

فنقول في تعريف القرآن: **"هو كلام الله المنزل على محمد – صلى الله عليه وسلم– المتعبد بتلاوته"**. هذا التعريف من عادة العلماء – رحمهم الله– أنهم إذا ذكروا تعريفاً للشيء يشرحون التعريف ويذكرون محترزاته فدعونا ننظر إلى شرح هذا التعريف وذكر محترزاته حتى نبين أنه منطبق على القرآن ولا يدخل فيه غيره.

فأما كلمة "كلام الله المنزل على محمد", "كلام الله": خرج بهذه الكلمة كلام الخلق من الملائكة والأنبياء والإنس والجن وغيرهم فإن كلام هؤلاء ليس هو كلام الله تعالى.

---

[1] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير 37

[2] علوم القرآن بين البرهان والإتقان ص38

[3] علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير 39 مباحث في علوم القرآن لمناع القطان 15 دراسات في علوم القرآن الكريم أ\د. فهد الرومي 21 علوم القرآن بين البرهان والإتقان 20 المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص18....

العبارة الثانية: من هذا التعريف "المنزل" خرج بهذا كلام الله – سبحانه وتعالى – الذي لم ينزله مما استأثر الله بعمله أو مما ألقاه على ملائكته للعمل به.

العبارة الثالثة: "على محمد- صلى الله عليه وسلم" وهذا خرج به ما أنزل على غير محمد – صلى الله عليه وسلم -من الأنبياء السابقين فقد أنزل الله – سبحانه وتعالى – على إبراهيم صحفاً وأنزل على موسى التوراة وأنزل على عيسى الإنجيل وأنزل على داود الزبور فهذه كتب أنزلت على رسل(أنبياء) سابقين ومحمد -صلى الله عليه وسلم- أنزل عليه القرآن .

وأما قولنا: "المتعبد بتلاوته" فقد خرج به الحديث القدسي فإن الحديث القدسي كلام الله – سبحانه وتعالى – لكنه ليس متعبداً بتلاوته, وحتى نوضح هذه العبارة توضيحاً تاماً نقول: إن مرادنا بقولنا "متعبد بتلاوته" أمران:

الأمر الأول: أنه الذي يقرأ به في الصلاة فالمقصود بقولنا: المتعبد بتلاوته أي الذي نقرأ به في الصلاة دون ما سواه فنحن في صلاتنا لا نقرأ عند القيام إلا بالقرآن الكريم وهو الذي تعبدنا الله – سبحانه وتعالى – بقراءته في الصلاة.

الثاني مما نريده بهذه الكلمة: أن الثواب على تلاوته لا يعدله ثواب؛ ولذلك قال النبي- صلى الله عليه وسلم: "من قرأ حرفاً من كتاب الله – سبحانه وتعالى – فله به حسنة والحسنة بعشرة أمثالها لا أقول: (الم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف" وهذا الحديث كما تعلمون فيه ثواب عظيم لمن تلا القرآن وقرأه، هذا الثواب لا يناله إلا من قرأ القرآن لأنه أعلى الكلام وأجله وأعظمه.

وهذا الكلام يقودنا إلى التفريق بين الحديث القدسي وبين القرآن الكريم وقد ذكر العلماء فروقاً كثيرة بين القرآن وبين الحديث القدسي[1].

الفرق الأول: فهو أن القرآن وقع به التحدي وحصل به الإعجاز، التحدي بأن يأتوا بمثل القرآن أو أن يأتوا بعشر سور من مثله أو يأتوا بسورة من مثله أو حديث مثله أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي هذا هو الفرق الأول بين القرآن وبين الحديث القدسي.

الفرق الثاني: أن القرآن منقول كله بالتواتر فمن جحد حرفاً منه فقد كفر أما الحديث القدسي فمنه ما نقل بالتواتر وهو قليل جداً، ومنه – وهو الأكثر- ما نقل بالآحاد.. والحديث القدسي بآحاده منه ما هو صحيح ومنه ما هو ضعيف ومنه ما هو حسن أما القرآن فكله متواتر قد أجمع المسلمون على تلقيه وعلى تواتر جميع ما فيه من كلمات وحروف حتى الضبط والشكل فيه مجمع عليه ومتواتر فيه.

الفرق الثالث: أن القرآن من عند الله لفظاً ومعنى أما الحديث القدسي فمعناه قطعاً من عند الله – سبحانه وتعالى – وإلا فكيف ينسبه النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى الله -جل وعلا أما لفظه فقد اختلف فيه لذلك النبي – صلى

[1] بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، لموسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، عمان، ط2، 1416هـ/1996م، ص 20 وما بعدها.

الله عليه وسلم- يقول في الحديث القدسي أو الرواة يذكرون في الحديث القدسي يقولون: عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه.

الفرق الرابع: القرآن لا ينسب إلا إلى الله فيقال قال الله – عز وجل- أما الحديث القدسي فيقال قال الله تعالى أو يقال قال النبي – صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه.

الفرق الخامس: أن القرآن لا يمسه إلا المطهرون وسيأتينا – إن شاء الله- بحث هذه القضية في أحكام المصحف في آخر هذه الدروس – بإذن الله جل وعلا- أما الحديث القدسي فيمسه الطاهر وغيره حتى الجنب يجوز له أن يمس الكتاب الذي فيه أحاديث قدسية أو الورقة التي فيها أحاديث قدسية.

أيضاً من الفروق أن القرآن تحرم روايته بالمعنى أما الحديث القدسي فيجوز لمن عرف معناه أن يرويه بالمعنى.

ومن الفروق أيضا التي ذكرها العلماء بين القرآن والحديث القدسي أن القرآن له رسم خاص معروف وقد اختلفوا هل يجوز لأحد أن يكتب القرآن بغير الرسم الذي وضع عليه في عهد عثمان – رضي الله عنه – أو لا؟ هذا سيأتينا – إن شاء الله – في مبحث خاص في رسم القرآن الكريم.

أما الحديث القدسي فيكتب بأي صفة شاء الناس إذا كان ذلك مطابقاً للفظ النبي- صلى الله عليه وسلم- والمعنى المراد منه.

ومن الفروق التي تذكر في ذلك المقام أن القرآن تشرع له الاستعاذة عند التلاوة والبسملة في أول السور بخلاف الحديث القدسي فلا يشرع فيه ذلك.

ثم إن القرآن تسمى الجملة منه آية وتسمى جملة الآيات منه سورة أما الحديث القدسي فلا يسمى شيء منه لا آية ولا سورة.

هذه جملة من الفروق بين الحديث القدسي والقرآن جر الحديث إليها ذِكْرُ الفرق بين القرآن والحديث القدسي من خلال التعريف الذي عرفنا به القرآن.

3- تعريف علوم القرآن علما على هذا الفنّ:

بعد أن عرفنا علوم القرآن أو عرفنا كل جزئية من هذا المركب وهو كلمة ''علوم'' وكلمة ''قرآن'' نأتي إلى تعريف علوم القرآن عَلَماً على هذا الفن المعروف عند أهل العلم وهو علوم القرآن:

ماذا نعني بعلوم القرآن؟ حقيقة لا بد أن نجلي هذه القضية في هذا المكان حتى نعرف العلم الذي سندرسه ولئلا يختلط علينا بعلوم أخرى ؛ لأن كلمة علوم القرآن يمكن أن تستعمل علماً على فن معين وهو الذي نريده في هذا المقام ويمكن أن تستعمل في معنى آخر، معنىً إضافياً وهو العلوم التي جاء بها القرآن فعلم العقيدة من علوم القرآن

وعلم الفقه من علوم القرآن وعلم الفرائض من علوم القرآن لأن القرآن جاء بالدلالة عليها وعلم السلوك والتربية من علوم القرآن لأن القرآن حث على تعلمها وعلى العمل بها وبيّن قواعدها وأصولها فليس هذا هو المراد عندما نتحدث عن علوم القرآن إنما نريد به ما اصطلح عليه العلماء – رحمهم الله تعالى – ويمكن أن نختار هذا التعريف من بين تعريفات كثيرة ذكرها أهل العلم في هذا المقام فيقال في تعريف علوم القرآن:

"مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وقراءاته وناسخه ومنسوخه ومكيّه ومدنيّه ونحو ذلك", فهي مجموعة البحوث التي تدرس في هذا العلم ليعرف من خلالها القرآن كيف نزل؟ كيف جمع؟ كيف كتب؟ كيف ضبط؟ كيف كان حال ناسخه ومنسوخه؟ كيف أمثاله وقصصه؟ كيف رسمه؟ كيف تكون قراءته وعلى أي شيء؟ ما المراد بالأحرف السبعة؟ ونحو هذه المباحث التي يدرسها العلماء – رحمهم الله تعالى – في هذا الفن الخاص.

وبهذا نكون قد ميزنا بين أمرين مهمين: علوم القرآن علماً على فن معين وهو الفن الذي سنتفرغ لدراسته في هذا الفصل الدراسي- نسأل الله التوفيق والسداد, وعلوم القرآن بمعنى العلوم التي دل عليها القرآن أو وردت في القرآن أو حث القرآن على تعملها فهذه ليست مرادة لنا في هذا الدرس.

وعليه فعلوم القرآن"**هو العلم الذي يحتوي على ما يرتبط بالقرآن الكريم من بحوث مثل تأريخ نزوله، وجمعه وترتيبه، وأسباب النزول، والمحكم والمتشابه، واختلاف القراءات، والناسخ والمنسوخ، ووجه الإعجاز فيه، وغير ذلك**".

المحاضرة الثانية: نشأة علوم القرآن وفائدته

. نشأة علوم القرآن[1]

نشأت علوم القرآن تدريجياً بحسب الحاجة لفهم معاني القرآن، فكان العرب والصحابة يفهمون القرآن كونه نزل بلغتهم وقلما يغيب عنهم معنى أو يستشكل ظاهر من القرآن، ومع شروع الصحابة في جمع القرآن بدأ يتشكل علم خاص برسم القرآن، وقد تطور هذا العلم مع تطور الخط العربي ونقط المصحف وإعجامه، كما رافق ذلك الحديث عن إعراب القرآن، ومع انتشار الإسلام وتوسع الفتوحات ودخول الأعاجم في الإسلام، وكذلك توسع المعارف والعلوم، ظهرت أنواع علوم القرآن المختلفة، فظهر مبكراً الحديث عن أسباب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ وعلم الغريب، وكان ذلك متداخلاً مع رواية الحديث التي شكلت في واحد من فصولها نشأة علم التفسير الذي استقل فيما بعد، فكان أقدم ما وصل إلينا مستقلاً من تفسير القرآن كاملاً هو تفسير مقاتل بن سليمان (150هـ).

وأما في موضوعات علوم القرآن فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) في مجاز القرآن، وأبو عبيد القاسم بن سلام (224هـ) في الناسخ والمنسوخ وفي القراءات، وعلي بن المديني (234هـ) في أسباب النزول، وينسب صاحب الفهرست إلى محمد بن خلف بن المزربان (309هـ) كتاب "الحاوي في علوم القرآن"، ولعله أقدم استعمال لتعبير علوم القرآن، وجرى بعد ذلك استعمال التعبير المركب "علوم القرآن" في القرن الرابع دون أن يحمل دلالة اصطلاحية، وجاء علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت:430هـ) ليؤلف كتابه "البرهان في علوم القرآن"، وهو تفسير يقع في ثلاثين مجلداً يوجد ما يقرب من نصفه مخطوطاً في مصر وغيرها، وقد ضمنه علوم القرآن في تفسير كل سورة، ويرجع الشيخ عبد العظيم الزرقاني إليه بداية إطلاق علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي الشامل لها، لكنه تناولها تطبيقاً في التفسير لا تنظيراً، "فأتى على علوم القرآن ولكن لا على طريقة ضم النظائر والأشباه بعضها إلى بعض تحت عنوان واحد لنوع واحد بل على طريقة النشر والتوزيع تبعا لانتشار الألفاظ المتشاكلة في القرآن وتوزعها حتى كأن هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات".

وقد ذكر مصطفى عبد القادر عطا في مقدمة تحقيقه للبرهان للزركشي، أن الزركشي نقل في كتابه البرهان ما قاله الحوفي في كتابه مختصراً إضافة إلى غيره، لكنه لم يذكر مستنده في ذلك، وأستبعد أن يكون عقد مقارنة بين الكتابين لأن كتاب الحوفي مخطوط وناقص وهو كتاب في التفسير، ولم يذكر الزركشي الحوفي في كتابه غير مرتين إحداهما في سياق تأليفه في إعراب القرآن، والثانية ينقل عنه رأياً من تفسيره حول آية القصاص وفصاحة القرآن، ولم أعثر له ذكراً في غير هذين الموضعين، مع ملاحظة اهتمام الزركشي بنسبة الأقوال إلى أصحابها، وكذلك تأريخه لما كتب في علوم القرآن، فيستبعد أن يكون الزركشي لخص كتاب الحوفي ضمن البرهان دون أن يشير إلى ذلك.

[1] مباحث في علوم القآن، صبحي الصالح، ص121 وما بعدها.

وفي القرنين السادس والسابع نجد ابن الجوزي (ت 597هـ) وله : "فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن" و"المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن"، كما صنف علم الدين السخاوي (ت643هـ) "جمال القراء وكمال الإقراء"، و ألف أبو شامة (ت665هـ) "المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقران العزيز"، وهي كتب في جوانب متخصصة من علوم القرآن.

أما في القرن الثامن فنجد بدر الدين الزركشي، (ت794هـ)، وكتابه "البرهان في علوم القرآن"، وقد كان الزركشي من علماء الأصول والفقه الشافعي، وصنف في عدة علوم كالفقه والأصول والتفسير وغيرها، وأما كتابه البرهان فهو مطبوع في أربعة مجلدات، وقد حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، وفيه عرض شامل وموسوعي لعلوم القرآن، حيث اختصر ما ضمنه فيه من معلومات من كتب التفسير واللغة والفقه وغيرها، فجمع آراء العلماء وأضاف إليها، وقد ذكر العشرات من أسماء الكتب والمؤلفين الذين نقل عنهم، فكان كتابه عصارة لفكرهم مضافاً إليها ما رآه الزركشي أو رجحه، لذلك كان كتابه فريداً في موضوعه من حيث كونه أول كتاب يشتمل على مختلف علوم القرآن ويعرف بها، ويمكن اعتباره أول من ألف في علوم القرآن بمعناها الاصطلاحي الذي يختص بجمع ضوابط العلوم المتصلة بالقرآن الكريم من ناحية كلية عامة .

وفي القرن التاسع: نجد جلال الدين البلقيني(ت824هـ) وكتابه:"مواقع العلوم من مواقع النجوم"، ومحمد بن سليمان الكافيجي (ت879هـ)وكتابه : "التيسير في قواعد التفسير"، ومع نهاية القرن التاسع وبداية العاشر نجد جلال الدين السيوطي (911 هـ(، المعروف بكثرة التأليف في مختلف العلوم وبالخصوص في علمي التفسير والحديث، والمتميز بالجمع والموسوعية في التأليف، وكتابه الشهير "الإتقان في علوم القرآن" الذي يعتبر من أكثر كتب الدراسات القرآنية استيعاباً لعلوم القرآن ومن أحسنها تصنيفاً وتبويباً، وهو اختصار لكتاب آخر أسهب فيه وهو" التحبير في علم التفسير"، وقد ضمن التحبير كتاب شيخه الإمام جلال الدين البلقيني (مواقع العلوم من مواقع النجوم)،كما استفاد فيه من شيخه الكافيجي، ويبدو أنه في أثناء تصنيفه "التحبير" لم يكن قد اطلع على كتاب البرهان للإمام الزركشي، أما كتاب "الإتقان" فقد صنفه بعد أن اطلع على كتاب البرهان للإمام الزركشي، فاختصره مع إضافات كثيرة، وجعله مقدمة لتفسير كبير شرع فيه ولم يتمه. ويؤخذ عليه أنه يورد الكثير من الروايات الضعيفة والأحاديث التي لم تثبت دون تعقيب، وكذلك ذكره لبعض الآراء دون ذكر أصحابها أو التعقيب عليها رغم تفردها. ويعتبر كتاب "الإتقان" أهم مصدر للباحثين والكاتبين في علوم القرآن بل إن معظم ما ألف حديثاً في علوم القرآن مقتبس منه. ويعتبر من أوائل الكتب التي طبعت في القرن التاسع عشر فطبع في كلكتا (1271هـ/1854م)، وقد توالى طبعه، ولم يحظ بتحقيق يليق بأهميته.

ثم بعد ذلك لا نجد تأليفاً متميزاً في علوم القرآن إلى أن ظهرت النهضة الحديثة في التأليف في القرن الرابع عشر الهجري، فظهرت عشرات المؤلفات الحديثة التي اختصرت ما تقدم وأضافت إليه، وكان من عوامل تجديد التأليف فيها ظهور موضوعات جديدة وتطور أساليب التدريس، وكانت جهود المستشرقين وما أثاروه من أهم المحفزات لإعادة النظر وتمحيصه في علوم القرآن، كما ظهرت محاولات جديدة تعيد النظر في علوم القرآن من منطلق إعادة النظر في الوحي والقرآن نفسه كمصدر ورسالة وتاريخ، كمحاولات نصر حامد أبو زيد.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أهم ثلاثة كتب حديثة شكلت إضافة في التآليف الحديثة في علوم القرآن وكانت مرجعاً لمعظم

المؤلفات الحديثة، وهي:

-مناهل العرفان في علوم القرآن، تأليف الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، وهو كتاب جامع يعتمد أسلوباً سهلاً، ضم الكثير من المادة العلمية من كتابي الزركشي والسيوطي، وأضاف إليهما مباحث جديدة لاسيما حول شبهات المستشرقين، وترجمة القرآن.

-مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح، وهو بالإضافة إلى الاختصار والجمع من المصادر عني بالتدقيق في مسائل جمع القرآن ووجوه الإعجاز والبلاغة، وتطرق إلى مسائل مثارة في عصره.

-النبأ العظيم، للدكتور محمد عبد الله دراز ، وهو طريقة جديدة في تناول القرآن الكريم تركز على خصائص القرآن ومزاياه المعجزة، يتناول بعض علوم القرآن بمنهج جديد، رقيق الأسلوب والتعبير.

ولا تزال علوم القرآن بحاجة إلى جهود علمية أكثر تسد النقص في جوانب من مباحثه، وتعيد النظر في جوانب أخرى، فعلوم القرآن فيها الكثير مما يحتاج إلى المراجعة والدرس.

. فائدة علوم القرآن

علوم القرآن من أهم العلوم، وأعلاها, وأنفعها، إذ هو السبيل لفهم كتاب الله, ومعرفة أحكامه , وحكمه , ولذا تظهر أهمية دراسة هذه العلوم من جوانب عديدة أبرزها ما يلي:

أولا: يساعد على فهم وتدبر القرآن الكريم، واستنباط أحكامه, ومعرفة حكمه , وحل مشكله , وفهم متشابهه ، بصورة صحيحة دقيقة , لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن ويفسره من لا يعرف نطقه، ورسمه، وأوجه قراءته, وأسباب نزوله , وناسخه ومنسوخه, ومحكمه ومتشابهه، ونحو ذلك , فهو الأساس, والمفتاح لفهم القرآن الكريم.

ثانيا: زيادة الثقة واليقين بهذا القرآن العظيم, خاصة لمن يتعمق في معرفة إعجازه ، وأحكامه، وحكمه, ويقف على دقيق أسراره، إذ الجهل بمثل هذه العلوم يجعل المسلم عرضة للشبهات التي يقصد من ورائها زعزعة اليقين.

ثالثا: معرفة الجهود العظيمة ـ الممتدة عبر التاريخ وفي كل القرون ـ التي بذلها العلماء لخدمة هذا الكتاب , ودور هذه الجهود في حفظه من التغيير والتبديل ، وفي تيسير فهمه.

رابعا: التسلّح بعلوم قيمة تمكن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام, ويبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه, وتعاليمه, وهو من أعظم الواجبات.

خامسا: زيادة ثقافة الفرد المسلم بالمصدر الأول لدينه , وأعظم ما يملكه في وجوده , إذ ينبغي لكل مسلم أن يأخذ حظه من القرآن مهما كان تخصصه, ومهنته، وحرفته.

سادسا: نيل الأجر والثواب , إذ تعدّ مثل هذه العلوم من أوسع أبواب العبودية لله.

سابعا: تطهير القلب , وتهذيب النفس , وزيادة الإيمان، إذ تعلم علوم القرآن يربط المسلم بصورة قوية بكتاب الله الذي أنزله الله شفاء للناس ورحمة.

المحاضرة الثالثة: ظاهرة الوحي

مع ازدهار الحياة العلمية، أصبح الإيمان بأن هناك عالما غيبيا لملاحظة آثاره ومظاهره، وإن كان يصعب معرفة كنهه، مع استثناء الملاحدة والماديين الذين ينكرون الأشياء غير المادية. والبحوث النفسية الروحية لها في مضمار العلم الآن مكانتها، ويقربها إلى الأفهام تفاوت الناس في مداركهم وميولهم وغرائزهم، فمن العقول العبقري الذي يبتكر كل جديد، ومنها الغبي الذي يستعصي عليه إدراك بدهيّات الأمور، وبين المنزلتين درجات. والنفوس كذلك منها الصافي المشرق، والخبيث المعتم.

والروح مثل الجسم تحتاج إلى غذاء، وتعتل الروح كما يعتل الجسد.

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للوحي السماوي، ليلقي إليها برسالاته التي تسد حاجة البشر في رقي وجدانهم، وسمو أخلاقهم، واستقامة نظامهم، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه.

ولا غرابة في أن يكون هذا الاتصال بالوحي السماوي.

ومثال في حياتنا يقرّب المعنى أنّ الرجلين يتخاطبان في الهاتف، أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب، ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئاً سوى أزيز كدوي النحل الذي في صفة الوحي.

وقد شاهد الوحي معاصروه، ونقل إلينا بالتواتر المستوفي لشروطه بما يفيد العلم القطعي إلى الأجيال اللاحقة، ولمست الإنسانية أثره في حضارة أمته، وعزة أتباعه ما استمسكوا به وخذلان من فرط به.

كيفيّة وحي الله إلى الملائكة

جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا) – البقرة 30 –.

وعلى إيحائه إليهم: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ) – الأنفال 12–.

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً)– الذاريات 4–، (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)– النازعات 5–.

وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

ويؤيد هذا ماجاء في الحديث عن النواس بن سَمْعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السماء رجفةٌ-أو قال: رعدة- شديدةٌ خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صَعِقوا وخرُّوا سجَّداً فيكون أول من يرفعُ رأسَهُ جبريل، فيكلمه اللَّهُ من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مرَّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول:" قال الحق وهو العلي الكبير" فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أُمره الله عز وجل ".

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحي تكلم من الله، وسماع من الملائكة، وهول شديد لأثره، وإذا كان ظاهره-في مرور جبريل وانتهائه بالوحي- يدل على أن ذلك خاص بالقرآن فإن صدره يبين كيفية عامة.

الوحي في اللّغة :

يقال: وَحَى إليه وله , " يَحِي" وَحْياً أشار وأومأ إليه, وأوْحَيْتُ إليه إذا كلمته بما تخفيه عن غيره , فكل ما تلقيه إلى غيرك خفية فهو من الوحي.

فالوحي في اللغة يعني : الإعلام في خفاء بأي صورة كانت.

قال ابن تيمية:"الوحي الإعلام السريع الخفي , إما في اليقظة وإما في المنام".

فالوحي بمعناه اللغوي يتناول:

الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ).

والإلهام الغريزي للحيوان كالوحي إلى النحل (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) – النحل 68-.

والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً) – مريم 11 -.

ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) – الأنعام 121 -.

وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) – الأنفال 12-.

الوحي في الاصطلاح [1]:

[1] الاتقان للسيوطي ج128/1 وما بعدها، المدخل إلى علوم القرآن، محمد فاروق النبهان، دار عالم القرآن، حلب، 2005م، ص 27 وما بعدها

عرّف الوحي في اصطلاح الشرع بتعريفات أخص من التعريف اللغوي؛ ومن أشهرها وأجمعها:

"كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه".

وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

الأدلة العقلية على إثبات الوحي للنبي ﷺ :

ثبوت الوحي في تاريخ الأنبياء من الأمور المسلَّم بها بين أهل الديانات الربانية السابقة ، فلم يكن النبي ﷺ أول بشر أوحى الله إليه , أو ادّعى ظاهرة لم تكن معروفة في الأنبياء السابقين له؛ ولذلك قال تعالى لرسوله الكريم ﷺ : **(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ اَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)** – الأحقاف 9 – وقال تعالى : **(إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِئِينَ مِن بَعْدِهِ)** – النساء 163–.

وقد قال ورقة بن نوفل ـ الذي كان قد تنصر في الجاهلية ـ للنبي ﷺ عندما ذهبت به زوجه خديجة إليه فقال: (هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، وَإِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا)، والنَّامُوسُ : صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي يُطْلِعُهُ بِمَا يَسْتُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ .

فهي ظاهرة ليست بدعة في التاريخ، وقد تضافرت الأدلة العقلية والنقلية في الكتاب والسنة بما يؤكد ثبوت الوحي من الله ﷻ لنبيه الكريم محمد ﷺ ، وهذه الأدلة هي من مؤكدات النبوة , منها :

1. حالات النبي ﷺ مع الوحي وذلك :

أ / **عند نزول الوحي عليه** : ما كان يظهر على النبي ﷺ من ثقل جسمه ، وتفصده عرقاً في الليلة الشاتية ، ويسمع عند جبينه دوي كدوي النحل ونحوها مما هو خارج عن مقدور إنسان أن يتصنعه ونقل الصحابة ذلك نقلاً متواتراً بما يفيد اليقين ويؤكد صدقه .

ب/ **عند انقطاع الوحي عنه في وقت هو أحوج ما يكون إليه** : وقد كان الوحي ينقطع عنه في وقت هو في حاجة إليه ، ولا ينزل طوع إرادته مما يؤكد صدق النبي ﷺ ، وذلك عندما كان يسأل عن بعض الأمور ولم يكن له في ذلك علم من الله تعالى ينتظر حتى ينزل عليه الوحي فيجيب السائل.

ج/ **عندما ينزل الوحي مصوباً أو معاتباً له** : ومما يؤكد صدقه ﷺ ما جاء في القرآن الكريم من عتاب وتصويب لبعض مواقفه كقوله تعالى : **(يَآأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** – التحريم 1–, وكقوله تعالى: **(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)** - الأحزاب 37– .

2. شمائل النبي ﷺ تدل على صدقه : فقد قامت الأدلة القاطعة على صدق النبي ﷺ من مهده إلى بعثته فلم يعرف عنه كذب في حياته قط وقد شهد بذلك أعداؤه قبل أتباعه وأصحابه. فعندما سأل هرقل أبا سفيان في قوله " فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ: لا ، فقالَ هرقل: فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ " .

3. نصرة الله تعالى له : ومما يؤكد صدقه نصرة الله له, وإهلاك أعدائه, وتولي أمره وأمر من آمن معه؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين, ولا ينصر الكاذبين .

4. ما أيَّده الله به من معجزات : فقد أيده الله بمعجزات كثيرة تدل على صدقه وعلى رأس تلك المعجزات القرآن الكريم ؛ الذي تحدى الله به الخلق وخاصة من يشكُّون في صدق النبي ﷺ أن يأتوا بمثله، أو عشر سور من مثله، أو حتى سورة من مثله.

5. علوم القرآن الواسعة المتنوعة : ما جاء في القرآن من علوم ومعارف متنوعة حوت كل مباحث الإيمان ، وشملت كل فضائل الأخلاق والأعمال ، وتشريعات أشرقت لها جوانب الحياة المختلفة المالية , والجنائية, والعسكرية, والسياسية, والاجتماعية ونحوها, وعلوم كونية شملت السماء وزينتها ، والأرض وما عليها من جبال، وبحار، وأنهار، ورياح، ونبات، وحيوان وغيرها ، وعلوم نفسية وتربوية غائرة في أعماق النفس بشكل تحتار فيه العقول في زمان العلم دعك عن غيره ، ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها من تلقاء نفسه ، في سعتها ، ودقتها وعمقها.

6. القيم التي دعا إليها النبي ﷺ تؤكد صدقه؛ لأنَّه دعا إلى ما دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، من عبادة الله وحده دون سواه وترك عبودية غيره، ودعا إلى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، فهو لم يأت إلا بما بعث الله عليه المرسلين ، ولهذا عندما سأل هرقل أبا سفيان وقال له: " فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ" . فَقَالَ لَهُ : هَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ وَلَكِنْ لَمْ أَظُنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ".

7 . الأمور الغيبية في القرآن الكريم : ما جاء في القرآن الكريم من أنباء الغيب التي أوحى الله إليه بها والتي لا يمكنه معرفة حقائقها إلا عن طريق الوحي ؛ خاصة تلك الأخبار التي هي لأمم اندثرت آثارهم من الأرض

أقسام الوحي :

الوحي من حيث العموم:

ينقسم الوحي من حيث العموم إلى قسمين :

أ . وحي باللفظ والمعنى : وهذا هو القرآن الكريم ، قال تعالى : **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا)** –الشورى 7–، وقد أُمِرْنَا بالتعبد بتلاوته قال تعالى: **(وَرَتِّلِ الْقُرآنَ تَرْتِيلاً)** – المزمل 4 –، والتدبّر في معانيه قال تعالى:**(كِتَابٌ اَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوآ ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا اَلاَلْبَابِ)** – ص 29 –، وإتباع وحيه والدعوة لهديه قال تعالى: **(اتَّبِعُوا مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ)** – الأعراف 3–.

ب . وحي بالمعنى دون اللفظ: وهذه هي سنة النبي ﷺ ،كما قال تعالى: **(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)** – النجم 3،4 – ، وهذه قد أمرنا بأخذها والعمل بها ، قال تعالى: **(وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)** – الحشر 7 –، من هنا كان الأخذ بالسنة أخذاً بالقرآن .

الوحي من حيث النزول :

ينقسم وحي الله ﷻ لرسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ وغيره من الرسل من حيث طرق نزوله إلى قسمين وهما :

أ . وحي بدون واسطة : وهو على ثلاثة أنواع :

الرؤيا في المنام .

النفث في الروع .

كلام الله لنبيه من وراء حجاب .

ب . وحي بواسطة رسول من الملائكة : يرسله الله ﷻ ليبلغ رسالة الله ﷻ لرسله، قال تعالى: **(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)** – الشورى 51 – ، ولا ينزل الملك بالوحي إلا بعد أن يرسله الله ويأذن له كما حكى القرآن ذلك عن جبريل عليه السلام مع النبي ﷺ الكريم في قوله تعالى: **(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)** – مريم 64–، وإليك الحديث عن كلّ قسم:

القسم الأول : وحي بدون واسطة : وهو على ثلاثة أنواع :

1 . الرؤيا الصادقة في النوم :

رؤيا الأنبياء وحيٌ من الله ﷻ , وقد كان أول ما بدئ به النبي ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة , كما جاء في حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ:" أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ".

وقد ثبتت الرؤيا لنبي الله إبراهيم عليه السلام عندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

2 . النّفث في الرّوع:

وهو أن يلقي الله ﷻ الوحي في قلب ونفس الرسول ﷺ على وجه لا يستطيع دفعه ولا يجد فيه شكّاً, ولا يتصور معه المخالفة، ولا التردد بل يوقن أنه من عند الله ﷻ ليس من خطرات النفس, ولا نزغات الشيطان, فعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ألا فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوا بمعصية الله, فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته ".

3 .كلام الله لنبيه من وراء حجاب :

وهو أن يكلم الله تعالى نبيه كلاماً حقيقياً يليق بجلاله دون تشبيه ولا تمثيل , ولا تعطيل , ولا إلحاد , يسمعه منه نبيه ويعيه دون رؤيته للباري جل وعلا كما حدث لموسى عليه السلام قال تعالى: **(وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ)** – الأعراف 143–, وقال تعالى: **(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً)** – النساء 164–.

القسم الثاني:

ما يكون بواسطة رسول من الملائكة يرسله الله تعالى كجبريل أو غيره من الملائكة فيوحي إلى الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام . ما كلفه الله بتبليغه وإنزاله , وقد اختص جبريل عليه السلام بإنزال الوحي على النبي ﷺ كما في قوله تعالى: **(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)** – الشعراء 192،193،194–

حالات إتيان الملك بالوحي :

الحالات التي أتى فيها جبريل عليه السلام بالوحي إلى النبي ﷺ لا تخلو من حالات ثلاث وهي :

1. أن يأتي جبريل عليه السلام في صورته التي خلق عليها؛ له ستمائة جناح, وقد سد الأفق وهي حالة نادرة وقد ورد أنَّ النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين: الأولى كانت في الأرض في مكة على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق , والثانية في السماء عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج .

2. أن يأتي إليه في صورة رجل سوي , كصورة دحية الكلبي أو أعرابي فيكلمه, ويراه الحاضرون, ويسمعون كلامه ويفهمونه, ولكنهم لا يعرفون أنه جبريل؛ ولكن النبي ﷺ يعلم يقيناً أنه جبريل جاء ليعلمهم أمر دينهم، كما في حديث عمر بن الخطاب قال : "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ, شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ, لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ , ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ, فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ, وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ..." الحديث .

3 . أن يأتي إليه جبريل عليه السلام فينزل عليه بالوحي خفية دون رؤيته, ولكن يظهر أثر الوحي, والتغير على رسول الله ﷺ , فيغطُّ غطيط النائم, ويثقل جسده ثقلاً شديداً, ويتصبب عرقاً في جبينه في اليوم الشديد البرد, ويكون وقعه عليه كصلصلة الجرس, ويسمع الحاضرون عند وجهه كدوي النحل دون أن يفهموا منه شيئاً, أمَّا هو فيفهمه, ويعي

ما يوحي إليه به الملك وبمجرد ما ينفصم عنه يجد ما أوحي إليه في قلبه، كما قال تعالى: **(سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى)** – الأعلى 6- وهو يدرك يقيناً أنه وحي من الله سبحانه من غير لبس.

والقرآن كله نزل على هذه الحالة التي يكون فيها جبريل على ملكيته, ولم يثبت . والله أعلم . أن جبريل عليه السلام أتاه بشيء من القرآن وهو على صورة بشر, وكل ما جاء من ذلك فهو من وحي السنة, وليس من وحي القرآن الكريم . ولعل في ذلك حكمة عظيمة , إذ أنه لو نزل شيء من القرآن في حالة تصور جبريلعليه السلام على هيئة بشر لكان في هذا مدخل للشك والتدليس , ولوجد المشركون سنداً لزعمهم في قولهم الذي حكاه القرآن: **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)** – النحل 103- وقد نصّ القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى: **(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)** – الشعراء 192،193،194-

وقوله تعالى : **(قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُومِنِينَ)** – البقرة 97 -.

فقد نصت هاتان الآيتان على أن الوحي بالقرآن الكريم كان بواسطة جبريل . أي وليس بأي صورة أخرى من صور الوحي . أما وجه الاستدلال بهما على أن جبريل كان ينزل بصورته الملائكية فهو أنهما نصّتا كذلك على أن مناط هذا النزول أو محله هو قلب النبي الكريم ﷺ .

وكلتا الحالتين مذكور فيما يروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال :" يا رسول الله.... كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ :" أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول".

المحاضرة الرّابعة: كيفيّة نزول الوحي، وأوّل وآخر ما نزل

نزول القرآن الكريم[1] :

الذي عليه جمهور العلماء . رحمهم الله . أن القرآن الكريم تميز بنوعين من أنواع النزول :

الأول : نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا .

الثاني : نزول القرآن منجماً على قلب النبيﷺ .

ولكلّ نزول أدلته وحكمته على التفصيل الآتي :

أوّلا / نزول القرآن جملة إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا :

هنالك عدد من الأدلة ساقها العلماء لإثبات هذا النوع من النزول من أبرزها قوله تعالى:(**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءانُ هُدى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**) – البقرة 185 – وقوله تعالى: (**إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**) – الدخان 3 – وقوله تعالى: (**إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**) – القدر 1 –, ومن المعلوم أن القرآن لم ينزل على النبيﷺ في شهر واحد وهو شهر رمضان؛ وإنمَّا نزل فيه وفي غيره من الشهور, كما أنَّه لم ينزل في ليلة واحدة وإنمَّا نزل في عدد من الليالي والأيام, وبالليل والنهار, والصيف والشتاء, فقالوا إنَّ هذه الآيات تتحدث عن نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا؛ بدليل الآثار التي جاءت توضح ذلك منها:

1. ما جاء عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (أُنْزِلَ الْقُرْآن جُمْلَة وَاحِدَة إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا فِي لَيْلَة الْقَدْر, ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْد ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَة، ثم قَرَأَ: (**وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**) – الفرقان 33 – (**وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً**) – الإسراء 106 –.

2. وفي رواية أخرى عن ابن عباس ﷺ أنه قال : (فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا ، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلا).

فهذه الأدلة وغيرها تثبت نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

فهذه الآثار صحيحة صححها أهل العلم, وقول الصحابي في ما لا مجال للرأي فيه له حكم المرفوع للنبي ﷺ ، وخاصة قول عبد الله بن عباس حبر الأمة، وترجمان القرآن, وهو قول مؤيد بظاهر أدلة القرآن الكريم .

وقد رجّح بعض العلماء أنّ قوله تعالى (**إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**) – القدر 1– يراد به الإنزالان :

[1] علوم القرآن لنور الدين عتر ص24 وما بعدها. بحوث منهجية لموسى الإبراهيم ص 23 ومابعدها.

النّزول الأوّل : جملة إلى بيت العزّة في السّماء الدنيا ،كما جاءت الأدلة التي توضّح ذلك .

والنّزول الثّاني: ابتداء نزوله على رسول الله ﷺ وهو أيضاً قول صحيح كما روى الإمام أحمد في المسند من حديث وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ).

وَهَذَا كُلّه مُطَابِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءانُ)** – البقرة 185 –، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)** – القدر 1– فَيَحْتَمِل أَنْ تَكُون لَيْلَة الْقَدْر فِي تِلْكَ السَّنَة كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَة, فَأُنْزِلَ فِيهَا جُمْلَة إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا, ثُمَّ أُنْزِلَ فِي الْيَوْم الرَّابِع وَالْعِشْرِينَ إِلَى الأَرْض أَوَّل قوله تعالى: **(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)** –العلق 1.

ثانيا / نزول القرآن منجّماً على قلب النّبيّ ﷺ :

وهذا النوع من النزول قد تضافرت عليه الأدلة الكثيرة في القرآن والسنة من خلال أدلة تثبت نزول القرآن عليه، وأخرى تثبت تنجيم النزول، من ذلك قوله تعالى:(**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)** – الشعراء 192،195–, وقوله تعالى:(**لْ مَن كَانَ عَدُواً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِماَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُومِنِينَ)** – البقرة 97 –, وقوله تعالى:(**اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ اِلْكِتاَبَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجً)** – الكهف 1–, وقوله تعالى: **(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً)** – الفرقان 1–.

ومن الأدلة التي تثبت تنجيم نزول القرآن عليه قوله تعالى: **(وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً)** – الإسراء 106 –, قال ابن كثير وقوله **(وَقُرْءَاناً فَرَقْنَاهُ)** أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه : فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا , ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة.

وعن ابن عباس أنه قرأ "فرَّقناه" بالتشديد, أي أنزلناه آية آية ، مبيِّناً ، ومفسّراً .

وقال تعالى:**(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)** – الفرقان 32–.

كما أن الأدلة الكثيرة المتضافرة في السنة النبوية التي توضح كيفية نزول جبريل بالقرآن الكريم لآياته وسوره تقطع الشك في نزوله منجماً على قلبه , وأن النبي ﷺ سمعه من جبريل بأذنيه , ووعاه بقلبه , وبلغه للناس كما سمعه .

الحكمة من نزول القرآن منجماً على النبي ﷺ [1]:

لنزول القرآن الكريم منجماً على قلب النبي ﷺ في بضع وعشرين سنة حكم كثيرة منها ما نص عليه القرآن الكريم أو السنة النبوية , ومنها ما استنبطه العلماء ، وما زال المجال واسعاً أمام الباحثين لاستنباط المزيد من الحكم , وإليك الحديث عن بعضها :

1 . تثبيت فؤاد النبي ﷺ :

هذه الحكمة قد نص عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)**- الفرقان 32-.

يعني لنقوي به قلبك , فإنَّ الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب , وأشدُّ عناية بالمرسل إليه , ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه , وتجديد العهد به , وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز , فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة.

2 . ردّ شُبَه الكفّار والإجابة عن أسئلة السائلين :

وقد هذا قد جاء في قوله تعالى: **(وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً)** – الفرقان 33- أي لا يأتونك بحجة أو شبهة، ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم، فأخبره الله أن يجيبهم بأن أحكام الله لا تتبع أهواء البشر، وأنه لا يملك من الأمر شيئاً ، وإنَّما هو مبلغ ما يُوحى إليه , فعليكم أن تفهموا مهمتي.

3 . فضح مكائد الأعداء في حينها :

كان القرآن الكريم ينزل على رسوله الكريم بكشف عورات أعدائه بصورة تهز كيان الباطل وتعلي بنيان الحق , وتؤكد صدق الرسول ﷺ , وأن هذا القرآن منزل من الله ﷻ وهذا كثير ، كقوله تعالى عن المنافقين:**(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوآ آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوآ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَآ نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)** – البقرة 14 -.

4 . مسايرة الحوادث في عهد النّبوّة:

لحكمة أرادها الله تعالى جعل القرآن يمسّ واقع الحياة بأحداثها , ويحدث فيها تغييراً حياً يرتبط بحياتهم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، جعل بعض الآيات تنزل مرتبطة ببعض أسباب النزول حتى يأخذوا من الأحداث والوقائع

[1] بحوث منهجية لموسى الإبراهيم ص 24 وما بعدها.

التي تمر بهم دروساً قوية مؤثرة في حياتهم, ويدفعهم ذلك إلى التشوق للاستماع إليها, والتفكر في معانيها, وأخذ الدروس والعبر القوية من خلالها.

5. التّدرّج ومراعاة الأولويّات في التّربية والتّعليم :

وقد كان لهذا التنجيم فوائد عظيمة في التدرج بهم في تلقي الوحي, فهو يساعد دون شك على سهولة الحفظ لألفاظه, والتدبر والفهم لمعانيه, والتدرج مع النفوس في تطبيق أحكامه, وذلك لأن منهج التدرج في التربية والتعليم والتغيير له أثر كبير في تحقيق الأهداف المرجوة وتقبل المكلفين للدعوة؛ وذلك لأن الناس لا يمكن أن يتخلوا عن عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكياتهم بين يوم وليلة, وفي ذلك تعليم للأمة في كل زمان ومكان أن الإصلاح الاجتماعي يحتاج إلى أولوية في الخطاب, وقراءة لواقع الدعوة, ومعرفة تامة بنفسية المخاطبين وعاداتهم وعقائدهم وطاقاتهم, وأن ترك هذا الفقه الذي نتعلمه من تتبع نزول القرآن لمعالجة ذلك الواقع تخل عن منهج الله الذي رسمه للإصلاح, وسبب من أعظم أسباب فشل بعض الدعاة.

فالتخلي عن الباطل يحتاج إلى تدرج , كما أن التحلي بالحق يحتاج إلى فقه واسع في التدرج حتى تبلغ النفوس البشرية مبلغاً في الكمال الذي يريده الله, ولا بد أن يكون التدرج وفق منهج الأولويات، ومن هنا بدأ الإسلام في تربيتهم بقضايا الإيمان وأصول الأخلاق ثم تدرج في فرض العبادات ابتداءً بالصلاة ثم الصيام ثم الزكاة ثم الحج, وتدرج معهم في فضائل الإسلام وشعائره الأخرى، فلو نزلت الفرائض جملة لثقل على قلوبهم تقبلها , ولذلك أنزله الله وفق علمه وحكمته بما يصلح مع نفوس البشر.

6. تحقيق اليقين على أنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين :

فالقرآن الكريم من خلال نزوله آيات يدل على أنه من عند الله العزيز الحكيم؛ وذلك من خلال التتبع لما نزل أولاً وما نزل آخراً، وما بينهما، في بضع وعشرين سنة، وفي أماكن مختلفة, وأزمنة متباينة, وأحوال متنوعة, لكننا لا نجد فيه اختلافاً بين آياته، وكلماته، وحروفه, فألفاظه متشابهة، ومعانيه محكمة, وأسلوبه كله فريد متناسق لا اختلاف ولا تضاد، كما قال تعالى: **(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اِخْتِلاَفاً كَثِيراً)** –النساء 82-.

أوّل ما نزل وآخر ما نزل[1] :

اعتنى العلماء عناية خاصة بأول القرآن نزولاً, وآخر ما نزل منه،كما اعتنوا بأول ما نزل في مكة, وآخر ما نزل فيها, وأول ما نزل في المدينة وآخر ما نزل فيها, وأول ما نزل في كلِّ حكم، وآخر ما نزل فيه.

[1] علوم القرآن لنور الدين عتر ص35 وما بعدها.

أوّل ما نزل من القرآن الكريم [1]:

القول الأول: اختلف العلماء في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم إلى عدة أقوال أشهرها أن أول ما نزل من القرآن صدر سورة اقرأ ، وهذا القول رجحه جمهور العلماء من السلف والخلف, وتسنده الأدلة الواضحة من ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ . وَهُوَ التَّعَبُّدُ. اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: **(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ)** – العلق 1،3– , فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ .

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: (أول سورة نزلت من القرآن **(اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)** ، ومرادها بالسورة الآيات الخمس الأولى منها).

القول الثاني:

وذهب طائفة من العلماء إلى أن أول ما نزل من القرآن سورة المدثر، فقد روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال" :سألت جابر بن عبد الله ، أي القرآن أنزل قبل؟! قال : يا أيها المدثر "

والرّاجح[2]:

في رأيي أن القول الأول هو الراجح لأمور، ومنها :

ما ثبت في الصحيحين عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: بينما أنا امشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض.

وقد أجاب السيوطي في الإتقان عن الحديث الذي استدل به أصحاب القول الثاني بأجوبة انتقيت منها أفضلها وأقربها للواقعية والإقناع:

[1] الاتقان للسيوطي 1/48-71. المدخل إلى علوم القرآن للنبهان ض100 وما بعدها.
[2] البرهان للزركشي 1/207.

أن مراد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما – إنّما هو فيما نزل سورة كاملة، ذلك أن المدثر اكتمل نزولها قبل سورة اقرأ، التي نزل منها صدر السورة فقط.

أن مراد جابر يتعلّق بأوليّة الإنذار، لا مطلق الإنباء، فمن المعلوم أن سورة المدثر: نزلت آمرة النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطلق داعية إلى الله منذراً أهل الشرك والضلالة مغبة ما هم فيه من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام. أما سورة العلق فلم يكن فيها شيء من ذلك، بل هو مجرد الإنباء والتهيئة لتلقي رسالة السماء.

آخر ما نزل من القرآن الكريم :

اختلف العلماء في ذلك إلى أقوال عديدة[1] منها

القول الأوّل: آخر ما نزل هو قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) – البقرة 278 –فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها آخر آية نزلت آية الربا.

القول الثّاني: أنّ آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: **(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)** – البقرة 281- .

فقد وردت روايات كثيرة عن ابن عباس توضح ذلك منها ما رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (آخر شيء نزل من القرآن: **(وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)**).

القول الثّالث: أن آخر آية نزلت آية الدين للأثر الوارد عن ابن عباس قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية الدين.

القول الرّابع: أن آخر ما نزل هو قوله تعالى (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ) – النساء 176- روى الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ).

القول الخامس: إنّ آخر ما نزل قوله تعالى: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً) – النستء 93- أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً) وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء.

القول السّادس: إن آخر ما نزل سورة المائدة,وهو مروي عن عائشة وغيرها. فقد روى الترمذي عن عائشة، وعبد الله بن عمرو قولهما" :آخر ما نزل سورة المائدة.

القول السّابع: إن آخر ما نزل سورة النصر. فقد أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال" :آخر سورة أنزلت: (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إلى آخرها .

[1] البرهان للزركشي 210/1 وما بعدها.

القول الثّامن: إن آخر ما نزل هو قوله(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً) – المائدة 3– فقد روى البخاري ومسلم في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب" :أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيّ آية؟! قال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا) قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

فوائد معرفة أول وآخر ما نزل:

لمعرفة أول وآخر ما نزل فوائد عديدة متى أمكن تحقيق وتحرير هذا البحث, فمن ذلك:

1– معرفة تدرج القرآن في النزول، وما الأمور التي نزل بشأنها الوحي أولاً، وذلك للاستفادة منها في العلم والدعوة، وترتيب سلم الأولويات في حياة العلماء والدعاة.

2– معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحكام والتشريعات.

3– ضبط ورصد كل ما يتعلق بالقرآن الكريم, لما له من المنزلة العظيمة في النفوس والقلوب.

المحاضرة الخامسة: جمع القرآن الكريم؛ المراحل والكيفيّات

جمع القرآن [1]

استعمل القرآن كلمة الجمع بمعنى الحفظ، وأطلقت لفظة جمّاع القرآن على حفاظ القرآن، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وكان القرآن محفوظا في الصدور ولم يكن مجموعا في مصحف أو مرتبا في سور متتابعة، وعلل الخطابي عدم جمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة.

ولفظة (حفظ القرآن) يراد بها أحد معنيين:

المعنى الأول: الجمع بمعنى الحفظ في الصدور.

المعنى الثاني: الجمع بمعنى الكتابة، سواء كانت كتابة مفرقة أو مرتبة.

وشاع استعمال لفظة جمع القرآن للدلالة على الكتابة والتدوين وترتيب الآيات والسور في مصحف واحد.

المعنى الأول: الجمع بمعنى الحفظ:

اتجهت همة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ القرآن يتنزل عليه إلى حفظ آياته واستظهارها خشية أن يفلت منها شيء فينساه، أداء منه صلى الله عليه وسلم للأمانة الملقاة عليه، وكان قلق النفس بسبب ذلك، حتى نزلت عليه الآية القرآنية التي دعته إلى الاطمئنان، ووعدته بأن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن وبيانه، قال تعالى: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ) – القيامة16،18–، وقال أيضا: (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) –طه: 114– .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن ويعيد قراءته، ويقرئه لأصحابه، ويحضهم على حفظه في الصدور، وروت السيدة عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان جبريل يعارضني القرآن في كل سنة مرة" .

وكانت مجالس الصحابة هي مجالس قرآن، يتدارسون القرآن، ويحفظونه، فهو بالنسبة إليهم كل شيء، ولا شيء غيره في حياتهم، يخاطبهم ويعلمهم، وكانت الأنظار ترقب نزوله، وسرعان ما تنطلق الحناجر بشغف وحب تردد الآيات الجديدة وتحفظها، حتى أصبحت المساجد تضج بأصوات الصحابة وهم يقرءون القرآن.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار".

وروى البخاري ومسلم أن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرأ عليّ القرآن، قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال: حسبك الآن، فالتفت إليه فإذا عيناه

[1] المدخل إلى علوم القرآن الكريم للنبهان ص103 وما بعدها.

تذرفان".

وكان إذا هاجر رجل دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الصحابة يعلّمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا.

وقال ابن الجزري صاحب كتاب النشر في القراءات العشر المتوفى سنة 533 هـ: "ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة"[1].

وهذا يؤكد لنا أن الأساس في حفظ القرآن هو حفظه في الصدور، وبخاصة أن معظم الصحابة كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون، وليس من اليسير عليهم أن يكتبوا القرآن، واعتمدوا على الحفظ في الصدور، وتكرار ذلك، حتى أصبحت آيات القرآن في صدر كل صحابي محفوظة يستشهد بها في كل مناسبة ويقرؤها في كل صلاة.

قال الزركشي في البرهان في بيان من جمع القرآن حفظا في عهده صلى الله عليه وسلم:

"حفظه في حياته جماعة من الصحابة، وكل قطعة منه كان يحفظها جماعة كثيرة أقلهم بالغون حد التواتر"[2].

المعنى الثاني: الجمع بمعنى الكتابة:

إذا أطلقت كلمة جمع القرآن أريد بها كتابة القرآن في مصحف، وهي التي قام بها أبو بكر الصديق في عهد خلافته، ثم أتمها عثمان بن عفان... واعتمد الجمع الذي تم في عهد أبي بكر على كتاب الوحي الذين كانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونستطيع أن نحدد مراحل الكتابة القرآنية بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الكتابة في عصر النبوة:

أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يوثق ما نزل عليه من القرآن بكتابته، بالإضافة إلى حفظه في الصدور، واختار بعض الصحابة الذين يحسنون الكتابة لكي يكتبوا القرآن.

قال الحاكم في المستدرك: جمع القرآن ثلاث مرات، إحداها بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخرج بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع"[3].

وقال الإمام الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة 243 هـ في كتابه فهم السنن: كتابة القرآن ليست محدثة فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرّقا في الرقاع والأكتاف والعسب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء.

فإن قيل: كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال؟ قيل: لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف، وقد شاهدوا تلاوته من النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة، فكان تزويد ما ليس منه مأمونا، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحيحه[4].

---

[1] النشرفي القراءات العشر لابن الجزري، 4/1.
[2] البرهان للزركشي 2231/1
[3] الاتقان للسيوطي 143/1.
[4] البرهان للزركشي 238/1.

ومن أهم كتاب الوحي الخلفاء الأربعة، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس.

روي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال: ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1].

واشتهر بجمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة من الصحابة من الأنصار هم:

أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد.

وروى البخاري عن قتادة قال سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، وفي رواية: مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، وقال البيهقي في كتاب المدخل: الرواية الأولى أصح، ثم أسند عن ابن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة لا يختلف فيهم، معاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد وأبو زيد، واختلفوا في رجلين من ثلاثة: أبو الدرداء وعثمان، وقيل: عثمان وتميم الداري[2]..

وتكلم القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار عن حملة القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأقام الدليل على أنهم كانوا أضعاف هذا العدد، ويشهد لذلك كثرة المقتولين من القراء يوم اليمامة، وعلل الروايات التي حددت القراء بأربعة باضطراب تلك الروايات، أو المراد بها أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن على جميع الأوجه والأحرف والقراءات[3].

وكانوا يكتبون القرآن على الوسائل المتاحة في ذلك العصر، وهي العسب[4] واللخاف[5] والرقاع[6] وقطع الأديم[7] وعظام الأكتاف[8] والأقتاب[9].

والروايات الواردة تؤكد حقائق أساسية تلقي الضوء على كيفية حفظ القرآن وجمعه وكتابته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

الحقيقة الأولى: الاعتماد على الحفظ في الصدور، وكان هذا الحفظ عاما لدى جميع الصحابة، يتسابقون إليه، ويجتمعون في المساجد لقراءة القرآن وحفظه، ولا يمكن تصور صحابي لا يحفظ بعض آيات القرآن، ويتفاوتون في مدى ذلك الحفظ، فمنهم الحفاظ ومنهم القراء، ومنهم كتاب الوحي، ومنهم من يحفظ القليل أو الكثير مما تيسر له.

الحقيقة الثانية: تأكيد كتابة القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبين يدي رسول الله، عقب نزول القرآن، وكان يختص بذلك كتاب الوحي، وأسماؤهم معروفة، والروايات تؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابة القرآن،

---

[1] البرهان للزركشي 231/1.
[2] المرجع نفسه 232/1.
[3] المرجع نفسه .
[4] العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل،وكانوا يكشفون الخرص ويكتبون على ما تحته.
[5] اللخاف:جمع لخفة وهي الحجارة الدقيقةأ صفائح الحجارة.
[6] الرّقاع: جمع رقعة وتكون من جلد أو ورق أو كاغد.
[7] الأديم: الجلد.
[8] الأكتاف: جمع كتف عظم البعير أوالشاة، وكانوا يكتبون عليه بعد أن يجفّ.
[9] الأقتاب: هي الأخشاب التي توضع على ظهر البعير.

وكان الصحابة يكتبون، ونهاهم عن كتابة السنة لئلا يقع الالتباس عليهم فيما كتبوه، حرصا منه صلى الله عليه وسلم على سلامة النص القرآني.

الحقيقة الثالثة: ليس هناك شيء من القرآن لم يكن مكتوبا، فكل القرآن مكتوب، وكتاب الوحي متعددون، بحيث إذا غاب البعض عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تولى الآخرون الكتابة، ولا يتصور غياب الجميع، وبخاصة أن كتاب الوحي كانوا من أقرب الناس لرسول الله، ومنهم الخلفاء الأربعة.

الحقيقة الرابعة: لم يكن القرآن مجموعا في مصحف وفق ترتيب واحد، وكان كتاب الوحي يحتفظون بما كتبوه، بحيث يسهل على من أراد جمع القرآن أن يقوم بذلك، والسبب في عدم الجمع هو استمرار نزول الوحي حتى الأيام الأخيرة من حياته صلى الله عليه وسلم، ولم تكن الحاجة ملحة لجمع القرآن، لوضوح نصوصه محفوظة في الصدور، ولثبوت نصوصه مدونة في الرقاع لدى كتاب الوحي ولدى غيرهم ممن كان يحرص على كتابة القرآن.

الحقيقة الخامسة: لا مجال للشك في ثبوت النصوص القرآنية، وما قام به أبو بكر فيما بعد لا يتعدى حدود الجمع، وتوثيق ذلك الجمع والاطمئنان إلى سلامة النص القرآني، ومطابقة النصوص المكتوبة بما هو محفوظ في صدور القراء الذين اشتهروا بالحفظ والدقة.

المرحلة الثانية: الجمع في عهد أبي بكر:

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم توقف الوحي، واستقرت نصوص القرآن، فلم يعد ينسخ منها شيء، ولا يضاف إليها جديد، وتولى أبو بكر الخلافة، واتجهت أنظار الصحابة إلى حفظ القرآن وجمعه في مصحف موحد، خشية أن يضيع منه شيء أو يضاف إليه ما ليس منه، إذا وقع التقاعس في جمعه في وقت مبكر، وبخاصة بعد معالم فتنة تبدو في الأفق، متمثلة في حركة الردة التي هزت المجتمع الإسلامي الوليد، وأيقظته على واقع جديد مليء بالتحديات والمواجهات.

وفي معركة اليمامة استشهد عدد كبير من حفظة القرآن، وصل عددهم إلى سبعين صحابيا، وبعضهم قال أكثر من ذلك، وخشي عمر بن الخطاب– وكان رجل دولة بعيد النظر واسع الرؤية قوي الحجة شجاعا في قراراته، غيورا على الإسلام– أن يضيع بعض القرآن أو يلتبس الأمر على المسلمين في شأن بعض آياته بعد موت الكثير من الحفاظ، فعرض الأمر على أبي بكر، وتردد الخليفة في قبول ذلك، خشية أن يفعل شيئا لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد تردد شرح الله صدره لذلك.

روى البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن

فاجمعه، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره، لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر[1].

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد خير قال: سمعت عليا يقول: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله. وشرع زيد في جمع القرآن، وطلب من حفاظ القرآن وكتابه، أن يأتوا بما لديهم من القرآن، واشترط لقبول ذلك أن يشهد شاهدان على صحة ما يأتيه، مبالغة في الاحتياط، وروى ابن أبي داود قال: قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان[2].

وفي رواية أخرى أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه.

وفسر ابن حجر المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة، وقال السخاوي في جمال القراء: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المراد أنهما يشهدان على ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن.

ونقل السيوطي عن أبي شامة المقدسي صاحب كتاب الروضتين أنه قال:

وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ، ولذلك قال في آخر سورة التوبة لم أجدها مع غيره أي لم أجدها مكتوبة مع غيره، لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة.

وفسر السيوطي في الإتقان معنى الشهادة أن المراد أنهما يشهدان على أن ذلك مما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم عام وفاته[3].

وهذه الروايات الكثيرة تؤكد الوقائع التي أدت إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر، وأن هذا الجمع أحيط بضوابط دقيقة لكي يكون القرآن في موطن الثقة واليقين.

وتجلت عوامل الدقة فيما يلي:

العامل الأول: الاعتماد على الحفظ والكتابة التي تمت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤكد هذا مشاركة الصحابة جميعا في هذا الجمع عن طريق تزويد زيد بكل ما هو مكتوب.

العامل الثاني: تفويض أمر الجمع إلى زيد بن ثابت، وقد كان في موطن الثقة، ولم يطعن أحد بكفاءته ونزاهته وقدرته على القيام بهذه المهمة.

---

[1] الاتقان للسيوطي 145/1.
[2] المرجع نفسه.
[3] المرجعنفسه.

العامل الثالث: توثيق النص القرآني بشاهدين، يشهدان على أن الكتابة تمت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

العامل الرابع: تأكيد ما هو محفوظ في صدور الصحابة لما هو موضوع في الرقاع والعسب وقطع الأديم.

ولما اكتمل الجهد، وتكامل الجمع، قال أبو بكر: سموه أو التمسوا له اسما، روى ابن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر:

التمسوا له اسما، فقال بعضهم: السفر، وقال بعضهم: المصحف فإن الحبشة يسمونه المصحف، وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف[1].

واستقبل هذا المصحف الذي تم جمعه في عهد أبي بكر من الصحابة، بالتقدير والتنويه، اعترافا بعظمة هذا العمل، وتأكيدا على سلامة منهج الجمع الذي نال ثقة الصحابة، وحظي بموافقتهم، وأجمعوا على قبوله والإشادة به.

المرحلة الثالثة: الجمع في عهد عثمان:

في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وامتد سلطانها، وتباعدت أرجاؤها، واختلطت شعوبها، وتداخلت لغاتها، وتناثر ذلك الجمع المبارك من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفاظ القرآن في تلك البقاع البعيدة، وأخذ كل إقليم يلتف حول رمز من رموز الإسلام من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعلم منهم القرآن، ويسمع منهم ما حفظوه من السنة، وما اختزنوه في ذاكرتهم من أيام الإسلام الأولى في عصر النبوة.

وكان من الطبيعي أن تتعدد القراءات وتتباعد اللهجات، ويقع الاختلاف في ترتيب الآيات والسور وبخاصة في ظل مصاحف مكتوبة، احتفظ بها أصحابها، لا تختلف من حيث الآيات عن مصحف أبي بكر، لأن ذلك مما وقع الإجماع عليه.

ولم يكن من اليسير مراقبة تلك المصاحف الفردية، وتتبع ترتيبها، وضبط تلاوتها ورسمها، لتباعد الأمصار الإسلامية عن المدينة، وخشي بعض الصحابة أن تتسع دائرة الخلاف، ويقع الاختلاف في القرآن، وطلبوا من الخليفة وهو المؤتمن على القرآن أن يتدارك الأمر قبل أن يستفحل، وأن يوحد المصحف، وأن يضع في كل بلد مصحفا معتمدا يرجع إليه عند الاختلاف، واستجاب عثمان لذلك الطلب، وحققت خطوته الموفقة أهدافها في توحيد المصحف، وكان هذا من توفيق الله وحفظه لكتابه.

روى البخاري في صحيحه أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين

[1] الاتقان للسيوطي 137/1.

الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أومصحف أن يحرق[1].

قال زيد: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فألحقناها في سورتها في المصحف.

قال ابن حجر: وكان ذلك سنة خمس وعشرين.

قال ابن التين وغيره:

" الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعا في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتبا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة، حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجا بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع قراءته بلغة غيرهم، رفعا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة "[2].

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني صاحب الإعجاز في كتابه الانتصار:

"لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد "[3].

وقال الحارث المحاسبي:

" المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق"[4].

وقال أبو الحسين بن فارس في المسائل الخمس:

جمع القرآن على ضربين:

أحدها: تأليف السور، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولته الصحابة.

وأما الجمع الآخر: وهو جمع الآيات في السور فهو توفيقي تولاه النبي صلى الله عليه وسلم[5].

---

[1] الاتقان للسيوطي 149/1، البرهان للزركشي 234/1.
[2] المرجع نفسه 171/1.
[3] الاتقان للسيوطي 171/1، البرهان للزركشي 235/1.
[4] الاتقان بيسيوطي 171/1-172.
[5] البرهان للزركشي 237/1.

وهذه النصوص واضحة الدلالة على تتابع الجهد وتكامل العمل، في رحلة جمع القرآن، وتوثيقه وتوحيد المصحف، وحسم الخلاف، وجمع كلمة المسلمين على مصحف موحد معتمد موثق لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، معتمدين في ذلك على ما كتبه كتاب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما حفظه الصحابة في صدورهم.

ويلاحظ في جمع عثمان للقرآن ما يلي:

أولا: اعتماده الكلي على مصحف أبي بكر الذي كان محفوظا لدى السيدة حفصة، ومصحف أبي بكر أعدته لجنة مختصة من حفاظ القرآن، ووقع الإجماع عليه، ولو وقع أي خلاف بين المصحفين لما ارتضاه المسلمون.

ثانيا: كلف عثمان لجنة رباعية أحد أفرادها زيد بن ثابت الذي قام بجمع القرآن في عهد أبي بكر.

ثالثا: هناك إشارة إلى أن جمع عثمان للقرآن كان يستهدف كتابة القرآن ورسم القرآن وتوحيد القراءة، (فاكتبوه بلسان قريش) وهذا دليل على أن أي خلاف لا يمكن أن يتعلق بنص القرآن، وإنما يتعلق بلغة القرآن وكتابة القرآن، وحدد لهم عثمان أنه إذا وقع أي خلاف بينهم وبين زيد فليكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، وهذا يؤكد ما ذهب إليه الباقلاني من أن ما قصد إليه عثمان هو جمع المسلمين على القراءات الثابتة المعروفة، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير.

وهكذا يتبين لنا أن جمع أبي بكر كان يستهدف جمع القرآن في مصحف واحد بعد أن كان مفرقا في الرقاع، وجمع عثمان كان يستهدف توحيد القراءة، لئلا يقع اختلاف بين القراء في قراءة القرآن، والأحاديث التي رواها البخاري في سبب الجمع الأول والجمع الثاني واضحة الدلالة على الأسباب التي دفعت أبا بكر للقيام بجمع القرآن، والأسباب التي دفعت عثمان للقيام بتوحيد القراءة القرآنية لكي تكون موافقة للغة قريش.

ويبدو أن بعض المستشرقين هالهم هذا الجهد المحكم الذي قام به الصحابة في وقت مبكر من تاريخ الإسلام، منطلقين في ذلك من إيمانهم بالقرآن، مدركين واجبهم في حماية نصوصه، متطلعين لمرضاة الله، فانطلقوا كعادتهم في مثل هذه المواقف يشككون في كل رواية، ويلتمسون لأنفسهم عذرا في طعن مقدسات الإسلام، مفسرين الأحداث والمواقف تفسيرا مريبا، فتارة يكتشفون صراعا بين المكيين والمدنيين، وتارة يفسرون ظاهرة عادية بما يحقق أغراضهم من إثارة الشبهات.

وأفضل رد على هؤلاء تجاهل ما يثيرونه من شبهات، وبخاصة تلك الشبهات التي لا يقوم عليها دليل، ولا تؤيدها حجة، لأن غايتهم الأولى من إثارة تلك الشبهات إشغال المسلمين بالرد عليها، وأنهاكهم بتتبعها، وإيصال صداها إلى المجتمعات الإسلامية لكي تكون في موطن النقاش والجدال.

والروايات التي نقلناها عن أئمة في العلم دالّة على وضوح مراحل الجمع، وسلامة تلك المراحل، وقبول الصحابة لذلك، وليس هناك ما يثير الشك والريبة في الجمع الأول والثاني، فالجمع الأول اعتمد على قرآن مكتوب في الرقاع والأكتاف والعسب، وأكد هذا الحارث المحاسبي (كتابة القرآن ليست محدثة) وأمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان، وفسر السخاوي مهمة الشاهدين الذين اشترط أبو بكر على زيد ألا يقبل شيئا من القرآن إلا بعد شهادتهما

بقوله:

المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله، والجمع الثاني كما أكدته الروايات المنقولة كان جمعا قصد به توحيد القراءات القرآنية، ومنع الاختلاف فيها، تأكيدا لوحدة لغة القرآن.

واختلف العلماء في عدد مصاحف عثمان، ونقل الزركشي في (البرهان) عن أبي عمرو الداني في المقنع قال:

" أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية واحدا، الكوفة والبصرة والشام، وترك واحدا عنده، وقد قيل: إنه جعله سبع نسخ، وزاد: إلى مكة وإلى اليمن وإلى البحرين، قال: والأول أصح وعليه الأئمة"[1].

وكانت مصاحف عثمان مجردة من كل ما هو خارج عن القرآن، لئلا يختلط القرآن بغيره، ويدخل بعض التفسير فيه، وكانت المصاحف التي كتبها بعض الصحابة قبل ذلك تشتمل على بعض الكلمات التفسيرية الموضحة لبعض معاني القرآن، وكان يمكن لتلك الكلمات مع مرور الزمن أن يقع الالتباس فيها، ويظن بأنها من القرآن، ولذلك أمر عثمان بإحراق المصاحف الفردية التي كانت موجودة لدى البعض، لئلا يقع الاختلاف في القرآن، وبخاصة في ظل كتابة قرآنية خالية من النقط والشكل، ويمكن أن تقرأ الكلمات المتشابهة في الرسم بألفاظ عدة.

ولا شك أن إحراق المصاحف الفردية كان اجتهادا موفقا من خليفة المسلمين، ولقي ترحيبا من معظم الصحابة، لأنه أدى إلى توحيد المصحف، وقطع دابر أي خلاف في آياته، من حيث القراءة والرسم، ومن اليسير علينا نحن اليوم أن نكتشف عظمة هذا الإنجاز وعظيم أثره، ولو بقيت المصاحف الفردية قائمة بيد أصحابها لكان من اليسير أن يتعصب كل صاحب مصحف لما كتبه وجمعه، ولاعتبر مصحفه هو الأصح والأدق، ومن الصعب بعد ذلك ضبط الأمور وإعادة اللحمة إلى ما تفرق من الآراء، وبخاصة في ظل عصر بدأت معالم الفتنة تطل عليه من بعيد، منذرة متوعدة، ومن حسن الحظ أن خطوة توحيد المصحف قد اكتملت قبل أن تتفجر الأحداث، وأصبح في كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية مصحفا معتمدا، هو الأساس لكل المصاحف، يوحد الكلمة، ويوحي بالثقة، ويجعل القرآن فوق كل الشبهات، مطوقا بحفظ الله ورعايته.

ولو صح أن خلافا حقيقيا وقع في مصحف عثمان، أو نزاعا بين الصحابة نشب بسبب إحراق المصاحف لما خفي هذا الخلاف والنزاع، ولارتفعت أصوات المعارضين عالية محتجة رافضة منددة بما فعل (عثمان)، وبخاصة في أواخر عهده، حيث أخذت أصوات الاحتجاج تتعالى مدينة بعض جوانب سياسته وإدارته.

وحاول بعض خصوم القرآن إثارة شكوك حول قطعية ثبوت النص القرآني، واعتمدوا في ذلك على روايات شاذة وحكايات موضوعة تؤكد ظنونهم، وتدعم ما أخذوا أنفسهم به من هدم هذا الصرح الكبير الذي أجمع المسلمون على صحته، وتكاتفوا في سبيل حفظه، ولا تخلو أية رواية من الروايات الشاذة من نقد واضح الدلالة على ضعفها وتهفتها، أو سوء تفسيرها، سواء تعلقت بشبهات حول سقوط شيء من القرآن بسبب نسيان، أو إضافة إليه.

ولا نهاية لمثل هذا المنهج الذي يعتمد التشكيك في القرآن، ولا سبيل لإيقاف النفوس المريضة التي أخذت تتتبع ما

[1] البرهان للزركشي 230/1.

سقط من الأقوال، وما نبذ من الروايات، إلا بتجاهل هذا المنهج ورفضه، وعدم الخوض فيه، فما أجمعت عليه الأمة، لا يمكن أن يكون في موطن الظن، وأن يخضع لمعايير نقدية أخذ بها من ران على قلبه مرض، أفقده الإحساس بحرارة الإيمان، وبإشراقة القرآن في النفس، فما تعهد الله بحفظه لا سبيل لبشر عليه، وكلام الله أسمى من أن يختلط بكلام البشر.

المحاضرة السّادسة: المكّيّ والمدنيّ في القرآن؛ الضّوابط والخصائص

المكّيّ والمدنيّ من القرآن الكريم

علم المكّيّ والمدنيّ تعريفه وعناية العلماء به [1]:

تعريف المكّيّ والمدنيّ :

للعلماء في تعريف المكي والمدني أقوال ثلاثة، أحسنها تعريف من عرف المكي والمدني باعتبار زمان النزول, وذلك بجعل الهجرة حداً فاصلاً، فقالوا :" **المكي ما نزل قبل الهجرة؛ وإن كان بغير مكة , والمدني ما نزل بعد الهجرة ؛ وإن كان بمكة, وما نزل في أثناء الهجرة قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة ؛ فهو مكي**" .

وهذا التعريف رجحه العلماء لأنه حاصر وضابط ، ولا تخرج عنه آية من آيات القرآن, خلافاً للقولين الآخرين , لأن من عرفه باعتبار مكان النزول قالوا : " المكي ما نزل بمكة وما جاورها كـ (منى ، وعرفات ، والحديبية) والمدني ما نزل بالمدينة وما جاورها كـ (أحد ، وقباء ، وبدر)" , فإنه غير حاصر ولا ضابط , لأنّه ليس كل القرآن اختصر نزوله على هذه الأمكنة؛ بل هناك آيات قرآنية نزلت في تبوك، والطائف، وبيت المقدس وغيرها، ومن عرَّفه كذلك باعتبار الخطاب؛ وذلك بجعل المكي ما كان فيه (**يَاأَيُّهَا النَّاسُ**), و(**يَا بَنِي ءَادَمَ**) باعتبار أن الكفر كان غالباً فناسبهم هذا الخطاب, والمدني ما كان فيه (**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) باعتبار أن الإيمان كان غالباً فناسبهم كذلك أن يخاطبهم الله بما هو محبب إلى نفوسهم, فهو غير حاصر ولا ضابط, وذلك لأن ليس كل القرآن مصدر أو فيه هذه النداءات الثلاثة .

عناية العلماء بالمكّيّ والمدنيّ :

اهتم العلماء قديماً وحديثاً بموضوع المكي والمدني في القرآن اهتماماً خاصاً , وتتبعوا القرآن سورة سورة ؛ بل آية آية لمعرفة زمان النزول ومكانه، معتمدين على صحيح المنقول , وسليم المنظور وفق اجتهاد قام على أسس وضوابط , ويظهر هذا الاهتمام من خلال النقاط الآتية :

أولاً: عناية أصحاب النبي ﷺ به؛ كما يقول عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه : " وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ "

وكان علي بن أبي طالب يقول على المنبر: " سلوني,فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم , وسلوني عن كتاب الله, فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بالنهار، أفي سهل أم في جبل ".

[1] البرهان للزركشي 192/1 وما بعدها، الاتقان للسيوطي 22/1 وما بعدها و 231/1 وما بعدها.

ثانياً : هنالك عدد من العلماء أفردوا هذا الموضوع بالتأليف قديماً وحديثاً، منهم مكي بن أبي طالب حمّوش القيسي (ت : 437هـ) ، لكن كتابه مفقود, وعبد العزيز بن أحمد بن سعد الدميري المعروف بالديريني (ت : 694هـ) وكتابه كذلك مفقود .

ومن الدراسات الحديثة :

1- خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها د. أحمد عباس البدوي.

2- خصائص السور والآيات المدنية وضوابطها ومقاصدها لـ "عادل محمد صالح أبو العلا .

ثالثاً: لا يخلو كتاب من كتب علوم القرآن القديمة والحديثة من الحديث عن هذا الموضوع، وتفصيل القول حول أهم النقاط التي تتعلق به, مما يدل على أهميته .

رابعاً: جعله العلماء من العلوم الواجبة على المفسر تعلمها, ويحرم عليه إن جهلها أن يتكلم في كتاب الل.

خامساً : مما يدل على اهتمام العلماء بهذا العلم تلك الفوائد الكثيرة التي نص عليها العلماء، وهي فوائد لا غنىً لمعلم، أو متعلم، أو فقيه ، أو داعية عنها .

ضوابط السّور المكّيّة والمدنيّة وخصائصهما الموضوعيّة[1] :

أولاً : ضوابط السّور المكّيّة :

1- كل سورة فيها سجدة فهي مكية وهي (14) سجدة ، و (ﷺ) ليست من عزائم السجدات وهي مكية.

2- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية , وذكرت ثلاثة وثلاثين مرة, في خمسة عشرة سورة ، في النصف الأخير من القرآن ، لأنها كلمة رد وزجر تناسب عناد المشركين وكبريائهم.

3- كل سورة مبدوءة بقسم فهي مكية, وهي خمس عشرة سورة هي "الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، القمر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر" .

4- كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي فهي مكية، ما عدا البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع، فيكون الباقي سبعة وعشرين سورة مكية.

5- كل سورة فيها (**يَاأَيُّهَا النَّاسُ**) وليس فيها(**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) فهي مكية كيونس، وفاطر, أما إذا انفردت فيها (**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) فهي مدنية .

[1] علوم القرآن لعتر ص55 وما بعدها. المدخل إلى علوم القرآن للنبهاني ص94 وما بعدها.

6-كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية ما عدا سورة البقرة .

7-كل سورة فيها قصص الأنبياء , والأمم الغابرة ؛ فهي مكية سوى البقرة وآل عمران.

ثانياً : ضوابط السّور المدنيّة :

1- كل سورة فيها ذكر الفرائض والحدود فهي مدنية .

2- كل سورة فيها ذكر أهل الكتاب ومجادلتهم فهي مدنية.

3- كل سورة فيها ذكر الجهاد ، أو الحث عليه ، أو توضيح أحكامه فهي مدنية .

4-كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية , سوى العنكبوت , وقد ورد في صدرها إحدى عشرة آية ذكر فيها المنافقون وهي مدنية على الراجح .

5-كل سورة فيها (**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا**) وليس فيها (**يَاأَيُّهَا النَّاسُ**) فهي مدنية .

الخصائص الموضوعيّة للمكّيّ والمدنيّ :

أولاً : خصائص المكيّ :

للقرآن المكي خصائص تميز بها في موضوعاته وسمات أسلوبه يمكن إجمالها فيما يلي :

1- بسط القول عن توحيد الله , وإفراده بالعبادة , مع إبطال الشرك ومجادلة المشركين بما يقطع حججهم ويلجم ألسنتهم بالأدلة والبراهين العقلية والآيات الكونية , مع إثبات صحة رسالة النبي ﷺ , وأن القرآن كلام الله ، وأن البعث حق , وتفصيل الحديث عن القيامة وهولها , وذكر الجنة ونعيمها , والنار وعذابها .

2- تشريع أصول العبادات، والمعاملات، والأخلاق التي يقوم عليها كيان المجتمع والتي دعت إليها كل الديانات السماوية، كقوله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَ الاِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) –النحل 90- كما تتناول فضح جرائم المشركين وما كانوا عليه من سوء العادات كسفك الدماء , ووأد البنات , وأكل أموال اليتامى والضعفاء ظلماً ونحو ذلك .

3- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً وعظة للمشركين , وتسلية وتثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

4- قصر الآيات والسور غالباً مع قوة الألفاظ, وإيجاز العبارة, وبلاغة المعنى في أسلوب يكثر فيه التأكيد، والتهديد، والوعيد, وضرب الأمثال, وتكرار بعض الجمل والآيات .

ثانياً : خصائص المدنيّ :

1- بيان العبادات ك (الصلاة والصيام والزكاة)، والمعاملات ك (النكاح، والطلاق، والبيوع)، والحدود, ك (حد الزنا،والقذف، والسرقة)، ونظام الأسرة, ونظام الدولة من قواعد وأحكام للسلم والحرب .

2- دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام، وإقامة الحجة عليهم، وبيان تحريفهم وانحرافهم، وكشف سوء ماضيهم وواقعهم, كما نجد ذلك بصورة واضحة في البقرة وآل عمران والتوبة .

3- كشف الستار عن حقيقة المنافقين, وبيان صفاتهم الذميمة، ونواياهم السيئة, وخبثهم، ومكرهم، وكيدهم، وخطرهم، وجبنهم، وهلعهم، كما جاء ذلك في التوبة والأحزاب والمنافقون وغيرها .

4- ذكر كل الأحكام الخاصة بالجهاد والحروب والغزوات، وما بينها من صلح ومعاهدات، وما فيه من غنائم، وفيء، وأسر، كما نجد ذلك في : البقرة والأنفال والتوبة ومحمد والفتح .

5- طول أكثر الآيات والسور, بما يتناسب مع البسط لتوضيح شرائع الإسلام وأحكامه في أسلوب يغلب عليه هدوء العبارة ولينها, في خطاب يغلب فيه النداء الإيماني .

فوائد العلم بالمكي والمدني :

أولاً : يساعد على فهم وتدبر القرآن بصورة دقيقة وسليمة .

ثانياً : الاستعانة به في ربط معاني القرآن بواقع الحياة ووقائعها وأحداثها, فإننا نتعلم من القرآن المكي أن الناس في أوقات ضعف الدعوة وبداياتها, يحتاجون إلى أن يزودوا بقصص الأنبياء والصالحين تسلية وتثبيتاً , وكيف صبر أولئك حتى نصرهم الله , وأهلك عدوهم مع عدده , بأسباب لم تكن في حسابهم ، وأن يذكروا كذلك بالصبر على الأذى, والتحمل , وضبط النفس, وكيف تحسم الفتن الداخلية ؛ فإن هذا التدرج في النزول مدرسة تربوية , تعليمية , لا حدود لها أمام الأمة بأثر , ونحن لم نأخذ منها إلا القليل.

ثالثاً : تمييز الناسخ من المنسوخ, وذلك لأن علم الناسخ والمنسوخ قائم على علم المكي والمدني الذي يهتم بتاريخ نزول الآيات والسور, حتى نستطيع تميز المتقدم من المتأخر في النسخ عند التعارض في الأحكام.

رابعاً : الاستفادة من تدرج نزول القرآن الكريم في التعليم والدعوة، أولاً في ترتيب أولويات الخطاب الدعوى؛ وذلك بالبدء بالأهم في معالجة أمراض الأفراد والأمم، إذ أن القرآن المكي ركَّز على إصلاح العقيدة, وتقويم السلوك, والأخلاق, وبعد أن ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحرام والحلال, وتفاصيل الأحكام, لأن الإنسان إن صلَّى , وصام , وحج, وفعل الخيرات؛ لكن كان مشركاً بالله ما نفعه ذلك عند الله تعالى.

خامساً: الوقوف على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لأن نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ساير تاريخ الدعوة بمراحلها المختلفة, حيثما كان , ومن هنا كان القرآن الكريم هو المرجع الأصيل للسيرة النبوية, وعليه تصحيح روايات أهل السير التي ليس لها سند صحيح .

سادساً: معرفة مدى عناية المسلمين واهتمامهم بالقرآن الكريم , وجهودهم المتواصلة في خدمته حفظاً، وفهماً، ومتابعة لزمان نزوله ومكانه بما يورث الثقة ، ويزرع اليقين في وصول هذا الكتاب إلينا دون زيادة أو نقصان , إذ أن الأمة لم تهتم فقط بنقل النص أو تفسيره , وإنما اهتموا كذلك بزمان نزوله ومكانه.

المحاضرة السّابعة: علم أسباب النّزول؛ تعريفه وطرق معرفته وفوائده

أسباب النزول تعريفه وعناية العلماء به وطرق معرفته[1] :

تعريف سبب النّزول :

هو ما أنزل الله بشأنه قرآناً ؛ وقت وقوعه ، كحادثة أو سؤال :

أولاً: فقولنا "ما أنزل الله بشأنه قرآناً", فقد يكون النازل آية كما كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ حين أَنْزَلَ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم: **(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمُ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَآئِكَةِ مُرْدَفِينَ)** – الأنفال 9-.

وقد يكون النازل آيات كما جاء في نزول سور الضحى.

وقد يكون النازل سورة من القرآن الكريم كما جاء في نزول سورة المسد **(تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)**.

ثانياً: وقولنا "وقت وقوعه" : فإنه قد تنزل الآيات أو السورة بعد الحادثة أو السؤال مباشرة كسورة المسد, وقد يتأخر نزول الآية عن السبب أو السؤال بعض الوقت لحكمة أرادها الله ﷻ كحادثة الثلاثة الذين خلفوا عن تبوك حيث نزلت بعد أربعين يوماً, وكحادثة الإفك نزلت بعد شهر من الواقعة, وكالسؤال عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين نزلت الآيات بعد خمسة عشر يوماً من سؤالهم.

أما إذا كانت الحادثة وقعت في الأمم الماضية وقبل بعثة النبي ﷺ ولم يرتبط بها سؤال فإنها لا تدخل في أسباب النزول, كالحوادث التي وقعت بين موسى وفرعون, وكحادثة إبراهيم عندما ألقي في النار, وكحادثة أصحاب الأخدود, وكحادثة أصحاب الفيل, فكل ذلك يدخل في باب القصص والأخبار عن الأمم الماضية.

ثالثاً : وقولنا "كحادثة " قد تكون الحادثة مرتبطة بشخصية الرسول ﷺ ، أو بزوجات النبي ﷺ ، أو ببعض أصحاب النبي ﷺ ، أو ببعض المشركين , واحداً أو جماعة منهم ، أو بالمنافقين, واحداً أو جماعة ، أو بأهل الكتاب واحداً , أو جماعة منهم .

رابعاً: "أما السؤال" فقد يتعلق بأمر ماض قال تعالى: **(وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)** – الكهف 83- فهم سألوا النبي ﷺ عن خبر هذا الملك العادل الذي ملك مشارق الأرض ومغاربها .

وقد يكون السؤال متعلقا بأمر حاضر, كما جاء ذلك في قوله تعالى: **(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّحِ)** – الإسراء 85-وقوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ)** – البقرة 189-.

[1] علوم القرآن الكريم، نور الدين عترمطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1414هـ/1993م، ص47 وما بعدها. بحوث منهجية لموسى الإبراهيم ص 29 وما بعدها.

وقد يكون السؤال متعلقا بأمر في المستقبل كقوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)** – الأعراف 187- وقوله تعالى: **(يَسْأَلُونَكَ مأذَا يُنْفِقُونَ)** – البقرة 215- .

وينبغي التنبه أنه لا يلتمس لكل آية سبب نزول كما بيّناّ, إذ أن نزول القرآن الكريم لم يكن متوقفاً كله على سبب نزول خاص بل أغلبه نزل للسبب العام، كما قال الجعبري: " نزل القرآن على قسمين , قسم نزل ابتداء , وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال ".

عناية العلماء بأسباب النزول :

اعتنى علماء علوم القرآن بصورة كبيرة بدراسة أسباب النزول , وتظهر هذه العناية من خلال ما يلي :

أولاً : اهتمام أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم من التابعين به ، كما يقول عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه : " وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ , ولا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ ", يريد بهذا سبب نزولها .

ثانياً: تأكيد العلماء على أهمية هذا العلم للمفسر, حتى يستطيع أن يفهم كثيراً من الآيات المتعلقة بأسباب النزول فهماً صحيحاً

ثالثاً :هنالك عدد كبير من العلماء أفرد هذا الموضوع بمؤلفات ودراسات خاصة وهي كثيرة منهم :

1- علي بن المديني شيخ البخاري (ت:234 هـ) كتابه مخطوطة لم تطبع.

2- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت: 468 هـ) له "أسباب النزول" وهو من الكتب القيمة المفيدة جداً .

3- ابن الجوزي (ت:597 هـ) له " أسباب نزول القرآن " .

4- الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: 852 هـ) له "العجاب في بيان الأسباب".

5- والإمام السيوطي (ت: 911 هـ) له "لباب النقول في أسباب النزول" وهو كتاب حافل موجز محررا لم يؤلف مثله في هذا النوع.

رابعاً : لا يخلو كتاب من كتب علوم القرآن من إفراد هذا الموضوع ببحث خاص .

الألفاظ الدّالة على سبب النّزول (كيف يعبّر عن سبب النزول؟):

استقرأ العلماء الألفاظ التي جاءت في الروايات المختلفة عن أسباب النزول فقسموها إلى قسمين :

القسم الأول : ألفاظ صريحة في السببية

وهي الألفاظ التي تنص على السببية ولا تحمل غيره، وهي التي صرح فيها الراوي بسبب النزول كأن يقول: " سبب نزول هذه الآية كذا " أو يقول: " حدث كذا فأنزل الله كذا "، بأن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على سبب النزول بعد ذكر سببها , فهذه الألفاظ نصٌ صريحٌ في السببية والأمثلة عن هذا قد تقدمت.

القسم الثاني : ألفاظ محتملة للسببية

ولما تضمنته الآية من أحكام, فهي ليست نصاً في السببية؛ كأن يقول الراوي: " نزلت هذه الآية في كذا ".

قال الزركشي : " قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: أنزلت هذه الآية في كذا؛ فإنه يريد بذلك أنها تضمنت هذا الحكم؛ لأن هذا كان السبب في نزولها , فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية, لا من جنس النقل لما وقع ".

أو أن يقول الراوي : أظن أو أحسب أن هذه الآية نزلت في كذا.

مسألة: هل العبرة بعموم اللّفظ أم بخصوص السّبب ؟

قسم العلماء النازل من القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : أن يكون السبب خاصاً واللفظ النازل خاصاً .

ثانياً : أن يكون السبب عاماً واللفظ النازل عاماً .

فهذان النوعان لا خلاف بين العلماء في حمل كل منهما على الآخر وذلك للمطابقة بين السبب واللفظ المنزل .

ثالثاً: أن يكون السبب خاصاً, واللفظ النازل عاماً, فهذا الذي اختلف فيه العلماء، والذي عليه الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمثلاً آيات الظهار وإن نزلت في خولة بنت ثعلبة مع زوجها إلا أن الحكم عام لهما ولغيرهما، وذلك لأنه لو أراد الله قصر الحكم على السبب ما أنزل علينا لفظاً عاماً, ولأن حمل النصوص العامة على الأسباب الخاصة تخصيص للنص القرآني بما لا يصح أن يخصص به.

كما أنه ينبغي العلم بأن الذين خالفوا الجمهور في أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم , لأن هذا لا يقوله عاقل ولا مسلم على الإطلاق؛ لأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين أن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين , وإنما غاية ما يقال أنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ وإنما يكون بالقياس ، أو بدليل آخر غير هذا الدليل الذي نزل في سبب خاص .

" فالآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته, وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً ".

فوائد معرفة أسباب النزول :

أولاً: يعين على فهم الآية فهماً صحيحاً, ويؤدي إلى معالجة ما يطرأ على البعض من إشكال، وذلك لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، بل هنالك جوانب من أسباب النزول يتوقف فهم المراد منها على علمه، والمفسر لا يستغنى عن علمه؛ لأن فيها بيان مجمل، أو إيضاح خفي وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيرا .

ثانياً: يساعد على إدراك الحكمة التي دعت إلى تشريع بعض الأحكام، ومعرفة مقاصد الشرع، ومراعاته للمصالح العامة، والخاصة في معالجة الحوادث, وحسن رعاية الله بخلقه وسعة سمعه, وعلمه وحكمته .

ثالثاً: يساعد على فهم واقع الدعوة, وكيفية مواجهة الحوادث التي تواجهها: العقدية, والأخلاقية, والاجتماعية, والسياسية، والعسكرية، لأن لارتباط بعض الآيات بأسباب نزول خاص جعل في القرآن واقعية تمس الحياة اليومية للمجتمع في كل جوانبه مما يدل دلالة حيَّة على أن هذا القرآن ينبغي أن يتخذ منهجاً للحياة, تعالج وفق تعاليمه وقائع وأحداث الأمة وكيفية استغلال مثل هذه الأحداث في الناحية التربوية والتعليمية؛ لأن ربط نصوص الكتاب والسنة بوقائع الحياة وأحداثها تجعل معاني القرآن حية في نفوس المسلمين ذات أثر عميق في دواخلهم .

رابعاً: فيه تسهيل لوعي الأمة بكلام ربها ، ويسهل عليها كذلك حفظه لأن معرفة السبب يعين على الفهم, والفهم يعين على الحفظ كما أن ربط الآيات بأحداث معينة يجعلها أكثر رسوخاً في الذهن ، وثباتاً في القلب .

خامساً: معرفة من نزلت فيه الآية بعينه، لأن في ذلك من الفوائد الشيء الكثير إذ فيه إسناد الفضل لأهله, ونفي التهمة عن البريء؛ حتى لا تحمل على غيره بدافع البغض أو المحبة .

سادساً: كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم؛ وذلك من خلال معرفة مراعاة الكلام لمقتضى الحال ؛ وذلك من خلال المطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي أنزل فيها ...إلى غير ذلك من فوائد .

المحاضرة الثّامنة: النّسخ في القرآن

علم الناسخ والمنسوخ[1]:

اهتم العلماء بدراسة النسخ في القرآن الكريم، وصنفوا فيه، وأفردوا له مؤلفات خاصة، وكشفوا النقاب عن مواطنه، وأزالوا الشبهات التي أحيطت بموضوع النسخ، ومن أبرز من ألف في النسخ كل من ابن الجوزي الفقيه الحنبلي المتوفى سنة 597 هـ في كتابه: "أخبار الرسوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ" وهو مطبوع مع كتاب مراتب المدلسين لابن حجر، وأبي جعفر النحاس محمد بن أحمد المرادي المتوفى سنة 338 هـ في كتابه: "الناسخ والمنسوخ"، وهو مطبوع بهامش كتاب أسباب النزول للواحدي، ومكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة 313 هـ في كتابه: "الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه"، وكتابه:"الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه"، وكتب في الناسخ والمنسوخ كل من: قتادة بن دعامة من تابعي البصرة، وأبي عبيد القاسم بن سلام وأبي داود السجستاني، وأبي بكر بن الأنباري وأبي بكر بن العربي المعافري[2].

واعتبر علماء القرآن علم الناسخ والمنسوخ من أهم علوم القرآن والتفسير، وهو عمدة العلوم، لأنه لا يمكن تفسير القرآن إلا بعد معرفة علم الناسخ والمنسوخ، وهو العلم الذي يبين مراحل نزول التشريع وتدرجه ويوضح منهج التشريع في إقرار الأحكام، وحكمته في خطاب المكلفين.

ونظرا لأهميته، فقد انصرف اهتمام علماء التفسير لدراسة هذا العلم، وناقشوا فكرة النسخ في القرآن، وأوضحوا مواطن النسخ، ودرسوا الروايات التي أشارت إلى وجود النسخ.

معنى النّسخ:

يطلق النسخ في اللغة على معنيين:

المعنى الأول: إزالة الشيء وإعدامه ومنه قوله تعالى :(وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ) – الحج: 52 – ويفيد معنى الإبطال، يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته، ونسخت هذا الكلام أي أبطلته ومعنى الإزالة واضح في النسخ.

المعنى الثاني: النقل والتبديل والتحويل: يقال: نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه حاكيا لفظه وخطه، ويأتي بمعنى التبديل: (وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ) – النحل: 110– واستعملت كلمة النسخ في المصطلح الفقهي بمعنى التحويل، كتناسخ المواريث أي تحويل الميراث من واحد إلى آخر.

وجاءت لفظة (النسخ) في الاصطلاح بمعنى: " رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي " وكلمة (الرفع) دقيقة المعنى، لأنها تعبر عن المعنى الحقيقي لمعنى النسخ والغاية منه، وكلمة الرفع أدق من كلمة الإزالة والتبديل والنقل والتحويل، فالنسخ هو رفع حكم شرعي بدليل، وكلمة النسخ أدق من كل كلمة تفسيرية، إذ لا يمكن لأية كلمة أن تفيد المعنى المطلوب،

[1] علوم القرآن لعتر ص 131 وما بعدها. المدخل للنبهاني ص 133 وما لعدها.
[2] البرهان للزركشي 28/2.

وعلم الناسخ والمنسوخ هو العلم الذي يبحث في ظاهرة رفع الأحكام الشرعية السابقة بأحكام شرعية لا حقة.
وهنا نتوقف قليلا عند مفهوم النسخ، فقد يكون النسخ الظاهر بيانا لا حقا للحكم الشرعي الأول، وبخاصة في حالات عدم وجود تعارض حقيقي في الأحكام المتعاقبة المتلاحقة ولا مجال للقول بوجود النسخ مع وجود البيان المتمم للحكم، إذ لا يمكن القول بوجود نسخ في قوله :(ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ) – البقرة 187 –، عن طريق اصطناع فصل بين أجزاء الآية، فالكلام متصل ومتكافل وواضح، ولا يتضح الحكم بعد أن يكتمل الخطاب.
ولا يمكن تصور النسخ إلا في حالات محدودة، حيث يبرز النسخ كحقيقة لا يمكن إنكارها، كما في حالات نسخ التلاوة، وهذا نسخ حقيقي، لا مجال لإنكاره، وهناك نسخ حكم سابق بحكم لاحق، إذا تعذر الجمع بين الحكمين، ولا أظن أن توسيع دائرة النسخ في القرآن من الأمور المطلوبة، فالأصل أن يكون كل ما في القرآن خطابا للمكلفين، إلا ما ثبت نسخ حكمه.
ولا فائدة في مناقشة ما أثاره العلماء في موضوع النسخ من استحالة البداء على الله، لأنه يتضمن ظهورا بعد خفاء وتغييرا في الرأي، وذلك جدل غير مفيد، وأمر النسخ واضح الحكمة، جلي الفائدة، وهو منهج تشريعي، لابد منه، لمواكبة سير الدعوة، وإقرار أحكام تحقق المصلحة، وتنسجم مع المرحلة الزمنية، وإذا سلمنا بمبدإ الإيمان بالله، وبما جاء من عند الله وجدنا أنفسنا في حلّ من تفسير ظاهرة النسخ وكثير من الظواهر المتعلقة بالرسالة والقرآن تفسيرا عقليا يخل في معظم الأحيان بقدسية المعاني الإيمانية، ويجعل المؤمن في موقف التساؤل والوصاية على ما لا يجوز أن يتدخل فيه أو يناقشه من أمور دينه وعقيدته.
إن منهجا جديدا في دراسات الفكر الإسلامي يعتمد على طرح ذلك المنهج الجدلي المكرر والمحفوظ جدير بأن يسهم في تطور فكرنا الإسلامي، فلا نناقش فيه ما قاله اليهود والنصارى، وكأنهم أوصياء على فكرنا، ولا نضيع وقتنا في جدل مع علماء الكلام في قضايا تجاوزها منهج السلف ولم يقف عندها، لأن الحوار فيها لا يؤدي إلى نتيجة، وربما يثير قضايا جديدة، تشغل العلماء بما هو غير مفيد من أنواع الحوار.

أنواع النسخ:

قسم علماء القرآن النسخ إلى أنواع:

النوع الأول: ما نسخت تلاوته وحكمه معا:

قال أبو بكر الرازي: نسخ الرسم والتلاوة إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ويرفعه من أوهامهم ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكتبه في المصحف، فيندرس على الأيام كسائر كتب الله القديمة التي ذكرها في كتابه في قوله : (إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى) – الأعلى 18،19– ولا يعرف منها اليوم شيء[1].
وأورد السيوطي ما روته عائشة: "كان فيما أنزل: عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس رضعات، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن مما يقرأ من القرآن" رواه الشيخان، وقد تكلموا في قولها: وهي مما يقرأ: مما يفيد بقاء

[1] البرهان للزركشي 30/2.

التلاوة، وأجيب بأن المراد أن النسخ تم قبل الوفاة، ولم يبلغ كل الناس بذلك، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض الناس يقرؤها[1].

النوع الثاني: ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته:

وهذا النوع هو الذي وقع الاهتمام به، وألّفت المؤلفات فيه، وانصرف إليه العلماء، وكتب ابن العربي المعافري كتابه: الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم في هذا النوع من النسخ، نظرا لاختلاف مدلوله، وتعدد الآراء فيه، وسبب الاختلاف في هذا النوع من النسخ أن القراءة باقية، ولم تنسخ، فتوسع العلماء في فهم معنى النسخ وشموله، والتبس عليهم الأمر بين التخصيص والنسخ، فاعتبروا التخصيص نسخا، وهذا تجاوز.

ومما ذهب إليه بعض العلماء في هذا المجال أنهم اعتبروا آيات القتال ناسخة لكل الآيات الواردة في القرآن التي تتضمن العفو والصفح والصبر، وأن تلك الآيات الداعية إلى قتال المشركين عامة وشاملة، فلا مجال بعدها للمهادنة أو المجادلة أو الصبر أو الصفح أو الإمهال، وذكر ابن العربي في كتابه الناسخ والمنسوخ أكثر من سبعين آية منسوخة بآيات القتال، كما ذكر الآيات التي نسخ حكمها وبقيت تلاوتها.

وأورد ابن العربي الآيات التي نسخ حكمها، وبقيت تلاوتها، ومن هذه الآيات ما يلي:

الآية الأولى: قال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) – البقرة: 180–.

قال ابن العربي في هذه الآية: " قال علماؤنا وابن القاسم عن مالك: هذه الآية نزلت قبل الفرائض ثم أنزل الله الفرائض في المواريث، فنسخت الوصية للوالدين ولكل وارث إلا أن تأذن الورثة في شيء فيجوز، واتفق الكل على أنها منسوخة واختلفوا في ناسخها على أربعة أقوال[2]:

الأول: إن ناسخها آية المواريث.

الثاني: إن ناسخها قوله تعالى:(وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً)– النساء: 8–.

الثالث: إنه نسخها أن الله تعالى أعطى كل ذي حق حقه ولا وصية لوارث.

الرابع: إنه نسخها بإجماع الأمة على إبطالها وأن الوصية لا تجوز لأحد ممن سمى الله له فرضا معروفا أو جعل النبي صلى الله عليه وسلم له حقا مفروضا".

وقد ناقش ابن العربي هذه الأقوال الأربعة وردها، ولم يعتبرها ناسخة للآية الأولى، فآية المواريث لا تتعارض مع آية الوصية، ومن شروط النسخ التعارض، ولا يعرف المتقدم والمتأخر من الآيتين، وآية القسمة لا تصلح لنسخ آية الوصية لعدم التعارض أيضا، ولا يصلح الخبر : "لا وصية لوارث" لنسخ الآية، لأن الآية أقوى من هذا الخبر من حيث الصحة، ولابد في النسخ من التماثل بين الناسخ والمنسوخ، أما الإجماع فلا يصلح لنسخ الآية، لأن الإجماع لا ينسخ أصلا لأنه ينعقد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وفرق بين الإجماع الذي ينعقد على نظر، والإجماع الذي ينعقد

[1] الاتقان للسيوطي 43/3.

[2] انظر: الناصخ والمنسوخ في القرآن الكريم لابن العربي، تحقيق الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 7/2.

على أثر، فما انعقد على نظر لا يصلح للنسخ، وما انعقد على أثر جاز أن يكون ناسخا، ويكون الناسخ الخبر الذي انبنى عليه الإجماع، وعندئذ تكون الأمة قد أجمعت على إسقاط الوصية للوالدين لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا وصية لوارث"[1].

الآية الثانية: قال تعالى:(وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) – البقرة: 184– وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى:(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) – البقرة: 185–.

وأورد ابن العربي الأقوال التي وردت في بيان هذه الآية، وأقوال الفقهاء في حكم الإطعام، فالصوم واجب على الصحيح المقيم، وثبت الإطعام على من لم يطق الصيام إذا فطر من كبر[2].

الآية الثالثة: قال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ) إلى قوله: (فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) – البقرة: 187–. وهذه الآية ناسخة للآية التي قبلها وهي قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) – البقرة: 183–، ونقل ابن العربي عن المفسرين أن المراد بالآية نسخ ما كان عليه العمل لدى الأمم السابقة، من تحريم الوطء بعد النوم في ليلة الصيام، وكان صوم المسلمين في بداية الأمر كصوم الأمم السابقة، ثم نسخ هذا الحكم، وأصبح الوطء جائزا خلال الليل، وكان بعض الصحابة لا يصبر على الامتناع عن الوطء : (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ)، فرخص الله لهم في هذا الأمر وأباح لهم ما كان محرما عليهم : (فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)[3].

وهذه أمثلة من الآيات التي نسخ حكمها وبقيت تلاوتها، واعتمدنا في ذلك على ما كتبه ابن العربي المعافري في كتابه الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، وهو كتاب قيم عرض فيه للنسخ في القرآن، وذكر الآيات المنسوخة في كل سورة في سور القرآن.

وتساءل السيوطي عن الحكم من نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وأجاب من وجهين:

–أحدهما: أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

–والثاني: أن النسخ غالبا ما يكون لتخفيف، فبقيت التلاوة تذكيرا للنعمة ورفع المشقة[4].

النوع الثالث: ما نسخ تلاوته دون حكمه:

أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبيّ بن كعب قال: كانت سورة الأحزاب توازي سورة النور، فكان فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما، وقال عمر : " لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي" رواه البخاري في صحيحه معلقا، ولو كانت التلاوة باقية ولم تنسخ لبادر عمر إلى كتابتها في المصحف، ولم يعرج على مقال الناس[5].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري: إنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها،

[1] المدخل للنبهاني ص138.
[2] الناسخ والمنسوخ لابن العربي 22/2.
[3] المرجع نفسه 25/2.
[4] الاتقان للسيوطي 49/3.
[5] البرهان للزركشي 34/2.

غير أني أحفظ منها : " لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب "[1].

وهنا طرح الزركشي في البرهان سؤالا وهو أن يقال:

" ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم، وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها، ونقل جواب ابن الجوزي صاحب كتاب فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن على هذا التساؤل بقوله: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به، فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي "[2].

ومما لا شك فيه أن النسخ وقع في القرآن الكريم، والأدلة النقلية تؤكد وقوع النسخ، والنسخ دليل صحة، وهو ظاهرة عظيمة الدلالة على عظمة منهج الإسلام في التشريع، إلا أنه يجب أن تحدد مواطن النسخ في القرآن، فيما لا يمكن إيجاد طريقة للجمع بين الناسخ والمنسوخ، وبالرغم مما كتب في موضوع النسخ في القرآن، فإن الأمر يحتاج إلى تدقيق، فمعظم ما كتب في النسخ لا يدل على وجود النسخ فيه، ولا تصادم ولا تناقض فيما ورد من آيات ذات دلالات متباعدة، ولكل نص دلالته وحكمه وحكمته.

ولا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي، لأن النسخ رفع حكم شرعي بدليل، والحكم لا يتصور إلا في مجال الأمر والنهي، أما الأخبار فلا يتصور النسخ فيها، لانعدام الفائدة من نسخها، ما لم يتضمن الخبر حكما، وفي هذه الحالة ينسخ الحكم وليس الخبر، وبناء على هذه القاعدة لا يتصور وقوع النسخ في كثير من السور، التي جاءت مبينة لأركان العقيدة مدافعة عن فكرة الإيمان، مجادلة المشركين فيما أخذوا أنفسهم به من عبادة الأصنام، وهناك أكثر من أربعين سورة لم يقع فيها ناسخ أو منسوخ، ومعظمها السور القصيرة التي لا تتضمن أمرا أو نهيا، ووقع النسخ كثيرا في السور المدنية الطويلة، لأن هذه السور جاءت بالأمر والنهي[3].

وتوسع بعض العلماء في مفهوم النسخ، وتفاوتت آراؤهم حول عدد آيات النسخ في القرآن، وقام بعض العلماء المعاصرين الذين درسوا موضوع النسخ في القرآن الكريم بإحصاءات بيانية أوضحوا فيها ما قاله العلماء في آيات النسخ، فالمكثرون أدخلوا في الناسخ والمنسوخ ما ليس منه.

رأي السيوطي في المكثرين في النسخ:

أشار السيوطي إلى ظاهرة الإكثار من آيات النسخ، ووصف العلماء المكثرين من آيات النسخ بأنهم أدخلوا أقساما في النسخ ليست منه، وأهم هذه الأقسام[4]:

الأول: قسم ليس من النسخ في شيء ولا من التخصيص، ولا له بهما علاقة بوجه من الوجوه، وذلك مثل قوله تعالى: (وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ)، وقالوا: إنه منسوخ بآية الزكاة، وليس كذلك بل هو باق... وكذلك القول بأن قوله تعالى : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ)، مما نسخ بآية السيف، لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدا، وهذا الكلام لا يقبل

[1] المرجع نفسه 37/2.
[2] البرهان للزركشي 37/2.
[3] الاتقان ييسيوطي 43/2.
[4] المرجع نفسه 43/2-44.

النسخ.

الثاني: قسم هو من قسم المخصوص لا من قسم المنسوخ، وقد اعتنى ابن العربي بتحرير هذا القسم وأجاد فيه، ويشمل هذا القسم الآيات التي خصت باستثناء أو غاية، كقوله تعالى: (إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)، (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)، وقد أخطأ من أدخلها في المنسوخ.

الثالث: قسم رفع ما كان عليه الأمر في الجاهلية أو في شرائع من قبلنا أو في أول الإسلام، ولم ينزل فيه قرآن، كإبطال نكاح نساء الآباء، ومشروعية القصاص والدية وحصر الطلاق في الثلاث، والراجح عند العلماء عدم اعتبار هذا من النسخ، لأن الأحكام الشرعية كلها رافعة لما كان عليه العمل في الجاهلية، والنسخ هو نسخ آية بأخرى أو رفع حكم ثبت بدليل بحكم لاحق يثبت بدليل أيضا.

واعتبر ابن العربي المعافري عدد الآيات المنسوخة لا تتجاوز مائة آية، خمس وسبعون آية منها منسوخة بآيات القتال، وذهب ابن حزم في كتابه معرفة الناسخ والمنسوخ أن آيات النسخ تبلغ مائتين وأربع عشرة آية، وذهب أبو جعفر النحاس في كتابه: (الناسخ والمنسوخ) إلى أنها تبلغ مائة وأربعا وثلاثين آية، وأوصلها ابن سلامة الضرير إلى مائتين وثلاث عشرة آية، وقصرها عبد القاهر البغدادي في كتابه الناسخ والمنسوخ إلى ست وستين آية[1].

قواعد النسخ عند ابن العربي:

استخرج الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري ثلاثين قاعدة من قواعد النسخ من كتاب الناسخ والمنسوخ لابن العربي المعافري، وسجلها في معرض دراسته وتحقيقه لهذا الكتاب، وأهم هذه القواعد ما يلي[2]:

1- كل قول وعمل كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا يجوز أن يكون ناسخا ولو كان إجماعا.
2- لا يجوز نسخ حكم في الشريعة بعد استئثار الله بالرسول صلى الله عليه وسلم.
3- لا ينسخ الإجماع القرآن والسنة.
4- إن كان الإجماع ينعقد على نظر، لم يجز أن ينسخ، وإن انعقد على أثر جاز أن يكون ناسخا، ويكون الناسخ الخبر الذي انبنى عليه الإجماع.
5- حكم الجاهلية ليس بحكم فيرفعه آخر، وإنما هو باطل كله.
6- إن كان الخبر عن الشرع فيدخل فيه النسخ لدخوله في المخبر عنه، فالخبر إنما يكون على وفق المخبر عنه، وإن كان القول في الوعد والوعيد فلا يدخل فيه النسخ بحال، لأنه لا يحتمل التبديل، إذ التبديل فيه كذب، ولا يجوز ذلك على الله سبحانه.
7- الخبر ينسخ إذا دخله التكليف، لأنه يكون حينئذ خبرا عن الشرع، فينسخ الخبر بنسخ المخبر، وإنما يمتنع نسخ الخبر الذي لا ينسخ خبره.

[1] الناسخ والمنسوخ لابن العربي 229/1.
[2] المرجع نفسه 225/1-227.

8- لا نسخ في الوعد والوعيد وإنما تنسخ الأحكام.

9- كل تهديد في القرآن منسوخ بآيات القتال.

10- الزيادة في التكليفات بعد حصرها بالنفي والإثبات لا تعد نسخا.

11- الحكم المحدود إلى غاية لا تكون الغاية ناسخة له.

12- الاستثناء ليس بنسخ باتفاق من العقلاء وأرباب اللغة، وإنما هو نوع من التخصيص.

13- خبر الواحد لا ينسخ القرآن إجماعا.

14- خبر الواحد إذا اجتمعت الأمة على نقله أو على معناه جاز نسخ القرآن به.

15- النسخ إنما يدخل في الأحكام لا في التوحيد.

16- المتقدم لا ينسخ المتأخر عقلا ولا شرعا.

17- إذا جهل التاريخ بطلت دعوى النسخ بكل حال.

18- القرآن ينسخ السنة والسنة تنسخ القرآن.

19- لا ينسخ المنقول إلا المنقول.

وهذه القواعد ترسخ منهج ابن العربي في فهمه للناسخ والمنسوخ، وهي قواعد هامة، وتحتاج لدراسة عميقة، لوضع أسس نظرية ابن العربي في النسخ، وهي نظرية متميزة دقيقة محكمة، تقيم أساسا متينا لكل ما يتعلق بالنسخ في القرآن الكريم.

المحاضرة التّاسعة: القصّة القرآنيّة؛ الخصائص والأهداف

القصّة في القرآن[1]:

القرآن كتاب هداية، وهذا هو الأصل فيه، وكل ما ورد فيه من توجيه وما اشتمل عليه من منهج وما تميز به من أسلوب إنما يهدف إلى تحقيق تلك الغاية، ولذا فلا يمكننا أن نطبق المعايير البشرية المتعارفة على كتاب الله، ولو طبقت تلك المعايير عليه لانتفت الخصوصية القرآنية، وهي خصوصية في الأسلوب، وفي القصة، وفي النظم، وفي التصوير، وفي المنهج.

والقصة في القرآن ليست قصة بالمفهوم الأدبي المتعارف عليه عند كتاب الرواية، ولا يمكن أن تكون كذلك، فالقرآن ليس رواية، وليست غايته سرد حادثة، وإنما غايته تحقيق هدف ينسجم مع رسالة القرآن..

وما يقصه القرآن من أخبار الأنبياء السابقين والأمم السابقة إنما يراد به أولا العبرة والعظة، ويراد به ثانيا تأكيد منهج الدعوة واستمرارية هذا المنهج، ويراد به ثالثا تصحيح الأحداث التاريخية ووضع تلك الأحداث في إطارها الصحيح، للتأكيد على أن أنبياء الله واجهوا تحديات وصعوبات وصبروا، ولم يضعفوا أو يستسلموا، وتابعوا طريقهم من غير تردد، مدافعين عن الحق رافعين لواء الإيمان بالله، مطالبين بتصحيح مسيرة الإنسان، مبرزين عظمة الفضيلة في السلوك الإنساني.

والقصة في القرآن خبر عن أمم سابقة، وهو خبر عن غيب ولا يمكن أن يعلمه إلا من أوتي سعة من علم، وجاء الوحي بها، لتأكيدها وإقرارها وتصحيحها، وما كان أهل الجاهلية يعلمون إلا القليل من أخبار الرسل والأمم، ولابد أن ما علموه دخله التحريف والتزوير والتشويه حتى أصبحت الحقيقة ضائعة، وجاء القرآن لكي يؤكد الواقعة، ويصحح الحدث، ويشير إلى العبرة، ويقود الإنسان إلى أن يكتشف بنفسه ما أراده القرآن من حتمية انتصار الإيمان على الكفر، وانتصار الخير على الشر.

والمحور العام الذي تدور حوله القصة القرآنية يتمثل في المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الدعوة الإسلامية، من إيمان بالله ورفض لكل مظاهر الكفر والشرك، ومحاربة الظلم في المجتمع، وتشجيع الفضيلة، ومنطق الأنبياء واحد، ومنهجهم متماثل، ومنطق أهل الكفر والظلم أيضا واحد، في جاهلية مستمرة يصحح مسارها رسل الله في كل حين.

قال تعالى:

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) — الأنعام 33،34 .-

وقال تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ) - الحج: 42- 44 .

[1] علوم القرآن لعتر ص 240 وما بعدها. المدخل للنبهاني ص 254 وما بعدها.

وهذه الآيات واضحات بينات على أن القصص القرآني كان يراد به تشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وتقويته لكيلا يضيق بكفر أهل الجاهلية وبتكذيبهم لدعوته، وألا ييأس من النصر، فهذا هو طريق الأنبياء والرسل، وهو طريق جهاد وصبر وهو محفوف بالأشواك والآلام والأحزان، ولكن النصر في النهاية لهم، لأن الله ناصرهم ومؤيدهم.

قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) – يوسف: 110-.

ولا شك أن القصة يراد بها أولا النبي صلى الله عليه وسلم، ويراد بها ثانيا أصحابه ومن جاء بعدهم من المسلمين، لكي يعلموا جيدا منهج الإسلام.

قال تعالى:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ)- القلم 48-49.

والقصة في القرآن تساق لغاية معينة، ولهذا يذكر من عناصر القصة ما يخدم تلك الغاية، ويحقق الغرض من إيراد القصة فالزمن لا يذكر غالبا إلا عند ما يمثل الزمن عنصرا من عناصر التعبير والتصوير، كقوله تعالى في حالة إخوة يوسف:

(وَجاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ) – يوسف: 16- 17.

وتصور القصة في القرآن الحدث وكأنه واقع فعلا، وتهيئ الأسباب النفسية لكي ينفعل القارئ بالحدث، ويعيش معه، ويراه أمامه كمشهد حي ناطق، وليس مجرد صورة جامدة ميتة، فليست الغاية القصة ولا المشهد وإنما الغاية إيراد قصة أو مشهد منها للتعبير عن معنى معين ينسجم مع أغراض القرآن في إبراز الصراع الدائم بين الحق والباطل، وتصوير حالة المشركين والطغاة وهم يدافعون عن مواقعهم أمام دعوة الأنبياء التي تهدف إلى تحرير المفاهيم الإنسانية وتصحيح العادات والقيم الاجتماعية، وخلق الإنسان يليق بخلافة الله في الأرض، فلا يطغى ولا يظلم ولا يذل ولا يسقط في هاوية الضلال..

ولو تأملنا في قصة الرجلين اللذين يملك أحدهما جنتين من أعناب، وتابعنا ذلك الحوار الرفيع المعبر عن عظمة القرآن في تقريب المعاني من الأذهان، وفي تصوير القيم الخالدة تصويرا رائعا، ما أعظم ذلك الحوار بين غافل عن الحق ظالم لنفسه دفعته غفلته إلى أن يعتز بماله ورجاله، ودخل جنته وهو يفخر بما يملك، وينظر نظرة صغار واحتقار لصاحبه المؤمن، ويقف المؤمن وقفة إيمان ونصح، ويقول له: (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ثم يقول بلهجة الواثق من ربه فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً) – الكهف 37-41.

وفجأة... يأتي أمر الله..(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً) – الكهف 42-.

وتأتي العبرة ..(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً) ويأتي الهدي القرآني مقررا الحقيقة التي يجب أن يعيها البشر: (هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً) – الكهف: 43- 44.

إنه أروع تصوير، وأجمل تمثيل وأصدق تعبير عن الحياة في مظاهرها، وعن الإنسان في قصور نظره وعجزه وضعفه، وقليل ما هم أولئك الذين يدركون الحق فلا يخدعون أنفسهم، ولا تخدعهم الدنيا، موقفان لرجل..

الموقف الأول:

يمشي بخيلاء، في جنتيه أعناب ونخل وزرع ونهر يتدفق ماء، وينظر باستعلاء لصاحبه:

– (أنا أكثر منك مالا وأعزّ نفرا).

ويشير إلى جنته بيده قائلا : (ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا).

أما الموقف الثاني:

جنة خاوية على عروشها، لا أعناب ولا نخل ولا زرع، ولا نهر ولا ثمر، ويقف صاحب الجنة حائرا دهشا يقلب كفيه لا يصدق ما يرى.

ويبحث عن ناصر ينصره، فلا يجد رجاله ولا ماله.

–يعود إلى حقيقته التي نسيها في لحظة غفلة.

–يا ليتني لم أشرك بربي أحدا.

وتسدل الستارة عن هذا المشهد الرائع المعبر.. وتظل الصورة في الأذهان ناطقة حية معبرة. وفي كل يوم يتجدد الحدث ويتجدد الحوار. وينسى الإنسان في لحظة الغفلة حكمة الحياة وعظمة الدرس.

ويتجدد المشهد على مسرح الحياة.

فرعون يقف شامخا بين قومه ينادي بأعلى صوته:

– (يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ) – الزخرف 51 –

ويشير بسخرية واستهزاء إلى موسى.

– (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ) – الزخرف 52–.

وانحطت الهامات طاعة وذلا، وفجأة حل بهم عقاب الله وغرقوا جميعا : (فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ) – الزخرف 55–.

وتأتي العبرة :(فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ) –الزخرف 56–

ويتجدد المشهد.

قرية بطرت معيشتها.. كذبت الرسل.. وظلمت.. وليس هناك أقسى من الظلم.. ولابد من الهلاك.. هذا وعد الله.. وهذه هي العبرة..(وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ) – القصص 58–.

.أشخاص القصة القرآنية:

والأشخاص في القصة القرآنية رموز معبرة عن مواقف ومعاني ودلالات، ولا تذكر الشخصية إلا في مواطن التعبير عن معاني معينة دالة على أحداث القصة القرآنية، ولا تراد الشخصية بذاتها فالقرآن ليس قصة ولا رواية تاريخية، وليس ذلك من أهدافه، ولهذا اقتصرت الرواية على ما يدل على الهدف، وتركزت العبارات حول ذات الحدث المراد، والجزئيات الخارجة عن نطاق الهدف من القصة ليست مرادة وليست ضرورية، ولهذا جاءت القصة في القرآن موجزة، بآيات قليلة، وبإشارات واضحة، وأشخاص القصة القرآنية كما وردت في قصة موسى وفرعون، انحصرت في موسى وفرعون وأم موسى وهناك أشخاص عابرون في القصة القرآنية لا يذكرون إلا في معرض الإشارة إلى دورهم كالرجلين الذين يتقاتلان، هذا من شيعته، وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، وإغفال الأسماء للدلالة على أنها ليست مهمة في القصة وليست دالة، ويكفي أن تشير القصة القرآنية إلى وصف يحدد دور ذلك الشخص ومكانه : (هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ)، (فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)، وأحيانا لا تذكر الأوصاف، ويخفى الخبر أو الموقف لأنه المراد، كما في قوله تعالى:

(وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى)، وليس ذلك الشخص مهما لكي يذكر، هل هو من شيعته أو من عدوه، يكفي أنه ناصح، نقل خبره وأدى مهمته وانتهى أمره.

وفرعون في القرآن دالة على معنى السلطة الظالمة الطاغية المستبدة التي تدعي الألوهية، وتستغل سذاجة الشعب لإذلاله وفرض الطاعة عليه، وجاءت لفظة فرعون في القرآن أربعا وسبعين مرة في سبع وعشرين سورة من سور القرآن، وأكثر ما وردت فيه في سورة الأعراف وسورة القصص وسورة غافر..

وارتبط اسم فرعون وملأه بأوصاف ذكرها القرآن، وأهمها ما يلي:

أولا: الكفر بآيات الله في قوله تعالى: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ) – الأنفال: 52.

ثانيا: التكذيب بآيات ربهم في قوله تعالى:(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ) – الأنفال: 54.

ثالثا: سوم الناس سوء العذاب في قوله تعالى : (نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ) – البقرة: 49.

رابعا: العلو في الأرض في قوله تعالى:(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً) – القصص: 4.

خامسا: الطغيان في قوله تعالى: (اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى) – طه: 24.

وجاءت في عدة أماكن في القرآن.

سادسا: الفسق في قوله تعالى : (فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) – النمل: 12.

سابعا: ادعاء الألوهية في قوله تعالى: (وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي) – القصص: 38.

وهذه الصفات التي وصف القرآن بها فرعون وقومه جعلت فرعون يمثل شخصية المستبد الطاغي المعاند الذي يكفر بآيات الله ويكذب بها، ويدعي لنفسه الألوهية والملك والسلطان، وسيظلم ويقتل ولذلك اتجهت دعوة الأنبياء والرسل لمقاومة هؤلاء الطغاة، لتحرير الإنسان الذي وقع عليه الظلم، ولتقويته ولشد أزره، لكي يقاوم ويرفض ويتمرد، ومن الطبيعي أن يستجيب الضعفاء لدعوة الأنبياء وأن يقف الأنبياء إلى جانب هؤلاء المستضعفين، لتخليصهم من سوء العذاب الذي يسلطه عليهم آل فرعون، لكي تستقيم مسيرة البشرية.

وقال آل فرعون لموسى ما قاله المشركون لمحمد، واتهموه بالسحر، والاتهام بالسحر هو تسليم بالعجز، واعتراف بعظمة التأثير ولا يوصف بالسحر إلا من أتى بشيء خارق للعادات معجز لا يقدر البشر على مثله، وقال محمد للمشركين ما قاله موسى لآل فرعون قال لهم: إني رسول من رب العالمين، وجاءهم بالبينات وبسلطان مبين، وسخر فرعون من موسى كما سخر المشركون من محمد: (قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ) – غافر: 29، وقال ساخرا:(وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً) – غافر 36-37.

وشخصية فرعون هي إحدى الشخصيات التي اعتمدت عليها القصة في القرآن، لأن دعوة موسى ومحمد واحدة، وما يلقاه (محمد) من قومه شبيه بما لقيه موسى من آل فرعون، وانتهت قصة موسى وفرعون بانتصار الحق على الباطل، وأغرق الله آل فرعون في اليم وامتن الله على بني إسرائيل بما أسبغه عليهم من نعمة فضّلهم به على غيرهم، قال تعالى : (وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) – البقرة: 49، ولابد أن ينتصر (محمد) على قومه من المشركين كما انتصر موسى على آل فرعون، تحقيقا لقوله تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) –غافر: 51- 52.

.الحوار في القصة القرآنية:

يعتبر الحوار عنصرا أساسيا في القصة القرآنية، ويجري الحوار بين شخصيات القصة معبرا عن المعنى المراد مشيرا إلى بعض ما ترمز إليه القصة من أهداف، والحوار يبعث الحياة في القصة القرآنية ويجعلها أكثر تعبيرا عن المعنى المقصود، ولا يمكن لأسلوب العرض التقريري أن يغني عن الحوار في بعض المواقف، فهو أداة التعبير المباشر عن الشخصية، والحوار يوضح ملامح الشخصية الإنسانية ويعبر عن أسلوبها وطبيعتها ويكشف خفايا تلك الشخصية الإنسانية من حيث الاستعدادات والانفعالات ويأتي الحوار في إطار السرد التاريخي للقصة، ويبرز هذا في قصة يوسف عند ما تحدث القرآن عن المرأة وراودته التي هو في بيتها وقالت: (هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)، وهناك علاقة بين الحوار والشخصية لأن لكل شخصية أسلوبها المعبر، فالملك يعبر بأسلوب يعبر عن شخصيته : (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)، (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ) والأمر واضح في خطاب الملوك، وفيه شدة ويلاحظ في الحوار أسلوب الرجاء: (يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا)، وأسلوب النصح في خطاب الأب لأولاده: (يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ) وليس هناك كلمة أبلغ في التعبير عن الاطمئنان وإزالة الخوف من كلمة يوسف لأخيه:(إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ)، وتأتي كلمة امرأة العزيز حاسمة صادقة:(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ) .

والحوار متعدد الأساليب، فهناك من الحوار ما يفيد معنى التهديد والوعيد، وهناك ما يفيد معنى الازدراء والاستخفاف وهناك ما يفيد معنى التلقين والتقرير، وهناك ما يفيد معنى النصح أو الاعتراف..

والقصة في سورة يوسف غنية بدلالاتها ومعانيها وألفاظها ومفرداتها، والحوار فيها مؤثر ومعبر وبليغ، يتميز بقوة

الألفاظ وبجمالها وبقدرتها التعبيرية عن الموقف، حتى أن القارئ يشعر كأنه يعيش الحدث ويتفاعل معه ويتأثر به، وكأنه يراه أمامه نابضا بالحياة..

ويتميز الأنبياء في الحوار بالرفق والنصح والتوجيه وسعة الصدر، لأنهم أصحاب رسالة، ومن الطبيعي أن يكون حوارهم معبرا عن قيم أخلاقية رفيعة وداعيا إلى عبادة الله والاحتكام إليه والاعتماد عليه، وتبرز معجزاتهم الدالة على صدق رسالتهم من خلال ما يمثله الحوار وما يعبر عنه من قدرات خاصة، كتأويل الأحاديث بالنسبة ليوسف، ومعجزات واضحة بالنسبة لموسى..

والحوار في القرآن متعدد الجوانب، فقد يخاطب الإنسان نفسه ويحاورها في نوع من أنواع التعبير عما يجيش في النفس من خواطر، لتفسير بعض المواقف، وأحيانا يجري الحوار بين الله والملائكة أو بين الله والإنسان، كقوله تعالى: (وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ) –البقرة: 30، وأحيانا يجري الحوار بين الملائكة والإنسان أو بين الإنسان والشياطين أو بين الإنسان والحيوان.

وغاية الحوار في كل ذلك تقريب الأفكار وتوضيح المعاني وإغناء السامع بالحجة وتمكينه من الوصول إلى الحقيقة، والإجابة عن طريق الحوار إلى ما يجول في ذهنه من تساؤلات وشكوك، ويتضمن الحوار في معظم الأحيان ما يراد أن يصل إلى السامع من إقرار مبادئ الإيمان، ومن انتصار الخير على الشر، ومن الاعتراف بنعمة الله وشكره والتخويف من عذابه..

.خصائص الحوار في القصة القرآنية:

وأهم ما يتميز به الحوار في القصة القرآنية ما يلي:

أولا: الإقناع العقلي، وهذه هي خصوصية الحوار، فالحوار وسيلة للإقناع، وربما يعتبر من أهم وسائل الإقناع، ولهذا اتجه الحوار إلى مخاطبة العقول وطرح التساؤلات العقلية التي يمكن أن يثيرها العقل، وبخاصة في القضايا التي تتصل بالعقيدة والإيمان، وإذا لم يحقق الحوار في بعض المواطن أغراضه بطريقة مباشرة فإنه على الأقل يساعد العقل على تلمس بعض الحقائق الإيمانية التي لا تدرك إلا بالذوق الإيماني وصفاء النفس وطهارة النفس ونقاء الفطرة، والمنهج العقلي في القرآن واضح وبين، ويخاطب القرآن العقل البشري، وينيط به مهمة التفسير والفهم، ويجعل المخاطب الموثوق بحسن إدراكه وعمق فهمه والعقول السليمة تستجيب لمنهج القرآن في الحوار، لأن القرآن الذي يخاطب العقول لا يمكن أن يقرر حقائق منافية للعقول والقصة القرآنية هي إحدى أدوات القرآن للإقناع والتأثير.

ثانيا: استخدام اللغة لإحداث التأثير النفسي، ومفردات القرآن متميزة في قوة تأثيرها، وفي دقة تعبيرها، وفي إحداث التأثير المطلوب منها، ولو استبدلت لفظة قرآنية بأخرى لضعف التأثير واختل المعنى، وترهلت العبارة، ومن اليسير علينا أن ندرك عند قراءتنا للقرآن أثر اللفظة القرآنية في إحداث التأثير النفسي ولو حاولنا أن نعيد كتابة قصة يوسف، أو استبدال لفظة بأخرى من ألفاظ الحوار لفقدت هذه القصة كل تأثير، ولكانت مملة، لأن القصة معروفة، واللفظة القرآنية هي أداة التعبير المؤثر، حتى أن السامع عند ما يسمعها يظن أنه يسمعها لأول مرة، ويتأثر بها، واللفظة المفردة ليست لها قيمة متميزة إلا في إطار المكان الذي جاءت فيه من النظم والتركيب، ولو تتبعنا بعض الكلمات القرآنية

لاكتشفنا عظمة النظم المؤثر.

- (وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ)..
- (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ)..
- (وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ)..
- (قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ)..
- (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ)..
- (قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ).
- (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ)..
- (وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ).
- (قَدْ شَغَفَها حُبًّا)..
- (وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ).
-(وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)..
- (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ).

إن كل كلمة مؤثرة، ولا تغني عنها لفظة أخرى، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني، والقصة القرآنية في شخصيتها وفي الحوار الذي يجري على لسان تلك الشخصيات هي أداة من أدوات الإقناع ولا تختلف من حيث الأثر عن الآيات الأخرى التي تقرر فيها مبادئ العقيدة بطريقة مباشرة..

ونلاحظ أن شخصيات القصة من خلال الحوار تنطق بما ينسجم مع دعوة الأنبياء في هداية البشر وإرشادهم إلى طريق الخير وتدعيم قيم الفضيلة في المجتمع الإنساني...

ويتمثل هذا في قول يوسف لرفيقيه في السجن: (يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) -يوسف: 39- 40.

وقول يعقوب لبنيه: (وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) -يوسف: 67.

ويحرص القرآن في مجال القصة القرآنية إلى أن يدعو أثناء عرض القصة أو بعد الانتهاء منها إلى استخراج العبرة منها، وأحيانا يبتدئ القصة بذكر العبرة منها.

ويؤكد هذا ما جاء في بداية قصة يوسف: (لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ) -يوسف: 7، وهذا بيان وتوضيح لأسباب عرض القصة في القرآن، فالقصة ليست مرادة، ويراد بها بيان الآيات التي تؤكد نبوة الأنبياء، وأن الله تعالى أعدهم لأمر وتكفل بأمرهم وجاء هذا في قوله تعالى: (وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) -يوسف: 21، وجاء هذا المعنى واضحا في قصة موسى وفرعون في سورة القصص في قوله تعالى: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ) –القصص: 5– 6.

وكثيرا ما تأتي الآيات في القصة موضحة العلة من إنزال العلة في الظالمين، كما في قوله تعالى في حق فرعون: (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) –القصص: 39– 40.

وهذا يؤكد خصوصيات القصة القرآنية من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب ومن حيث الغاية والهدف، وأهم خصوصياتها تداخل القصة بالحكم والعبر المستفادة منها، حيثما دعت الحاجة إلى ذلك في بداية القصة أو في نهايتها، أو على لسان شخصيات القصة أثناء الحوار.

ونخلص من هذا أن القصة في القرآن هي إحدى أبرز معاني الإعجاز، من حيث إخبارها عن الأمم السابقة مما لم يكن معلوما أو من حيث وضوح الالتزام بالأهداف القرآنية، أو من حيث الأسلوب البليغ المؤثر في إحداث الغاية المطلوبة من عرض القصة...

.روعة الوصف في القصة القرآنية:

لو تتبعنا قصة مريم في القرآن لوجدنا أروع نموذج لدقة الوصف، وتصوير الحالة النفسية، واختيار المفردات اللغوية المعبرة: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا).

– (قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا).

– (قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا).

– (قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا).

– (قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيًّا) – مريم: 16– 21.

ثم يبتدئ الوصف الرائع لمريم: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا)، وكلمة الانتباذ تعبر عن الوضع النفسي لمريم وهي تعيش حالة النفور من المجتمع ونفور المجتمع منها، لأنها تشعر أنها فعلت شيئا سيكون منكرا، وهي لا تدري ماذا تفعل، وكيف يمكن أن تدافع عن نفسها، ولما اشتد عليها ألم الوضع ودفعها إلى جذع الشجرة قالت والألم الجسدي والنفسي يكاد يخنقها: (يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا).

وهناك تبرز العناية الإلهية، صوت خفي يناديها:

(أَلَّا تَحْزَنِي)..

– (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا).

– (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) مريم: 26.

وجاءت به إلى قومها تحمله.. وارتفعت الأصوات منكرة معنفة ساخطة:

– (يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا).

- (يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)..

ما أقسى ما تسمعين يا مريم.. من اتهام.. بالسوء والبغي... لم تتكلم مريم.. لقد نذرت للرحمن صوما.. أشارت إليه..

قالوا بسخرية:

- (كيف نكلم من كان في المهد صبيّا)..

فجأة.. ارتفع صوت الصبي من المهد.. قال:

- (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) مريم: 30- 33.

ثم جاء التوجيه القرآني...

(ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) مريم: 35.

ونلاحظ أن الوصف القرآني معبر، فالكلمة دالة ناطقة حية.. مواقف..

وصور.. وحالات انفعال.. وحوار.. كل ذلك يتم في آيات قليلة، كل كلمة معبرة.. لوحات متتابعة... تعبر بالصورة الجميلة... عن الحد... والصورة جاءت في لفظة...

...وفي قصة جديدة..

يقف إبراهيم أمام أبيه... باستعطاف ورجاء..

- (إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً)..

- (يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا).

- (يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا).

- (يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا) مريم: 42- 45.

وانتهى الحوار بجواب أبيه، كان قاسيا كل القسوة... (قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا)

.دروس من القصة القرآنية:

وفي كل القصص تبرز معاني إنسانية عظيمة الأهمية في حياة البشر، فهناك الصراع بين الحق والباطل، وهناك عواطف البشر تطفو على السطح متحدية قيم المجتمع مؤكدة أن الإنسان لا يملك ذاته وهناك الظلم الطاغي الذي سلطه الطغاة على المستضعفين.

ويمكننا أن نستنتج من كل قصة مواقف إنسانية، ففي قصة موسى وفرعون يتجسد الطغيان في أقسى صورة، وفرعون هو رمز لهذا الطغيان، فهو يستعبد الناس ويظلمهم، ويقتل من شاء، ولا تجد امرأة ضعيفة طريقا لإنقاذ وليدها الصغير إلا أن تلقيه في البحر وهذا أقسى حالات اليأس والقنوط والإذلال، ويأبى الله إلا أن ينتصر الحق وتتدخل القدرة الإلهية فتتعهد ذلك الطفل، وتجعله الأمل المرتجى لخلاص بني إسرائيل، وتبرز المعجزة كما حكاها القرآن، يكبر موسى، وتلتقطه امرأة فرعون لكي يكون قرة عين لها ولزوجها فإذا به الخصم العنيد الذي يحمل اللواء لتحرير الإنسان من الظلم، والعاقبة في كل المعارك للحق والعدل، ومهما طال ليل العبودية فالفجر هو الوليد المنتظر بعد كل ظلام، ويحمل

موسى أمانة التكليف ويواجه فرعون وقومه ويتحداهم في عقر دارهم، ويطارد استقرارهم وأمنهم، وينغص عليهم عيشهم، ويقع الصدام ولابد منه، ويقع التنكيل برموز الحق ودعاة الحرية، وهذا لابد منه أيضا، وفي النهاية، ومهما طال الصراع، فالمواطن المظلوم سيقاوم من ظلمه إلى أن يسترد حقه ويمارس حريته، وعظمة الرسل والأنبياء أنهم كانوا دائما إلى جانب الحق يدافعون عن حرية الإنسان وكرامته وينتصرون لمبادئ الفضيلة ويقاومون الكفر والشرك، ويعيدون المسيرة الإنسانية لطريقها الصحيح، كلما ضلت طريقها.

وفي قصة يوسف تبرز النفس الإنسانية عارية مكشوفة، تحت تأثير الغرائز والشهوات، وليس أقسى على الإنسان من تحكم غرائزه والغريزة هي العدو الأول للإنسان، إذا تحكمت واستبدت، لأن الغريزة قوة عمياء متسلطة طاغية تتحكم في السلوك الإنساني وتقود الإنسان إلى أسوأ أنواع السلوك، فلا يتعقبه ضمير ولا يحاسبه رادع من خلق، ويقف إخوة يوسف في مواجهة أخيهم الصغير يوسف الذي حظي بسبب جماله وذكائه وفطنته بمحبة والده ورعايته..

وتتحرك النفس الأمارة بالسوء غاضبة مختنقة بمشاعر الحسد متطلعة للانتقام، باحثة عن سبب لتحقيق هذه الغاية، والنفس التي لم تبلغ كمالها الخلقي تظل عرضة لانفعالات خطيرة مدمرة لكل القيم الأخلاقية، وينقض الإخوة على أخيهم الصغير، فيوسعونه إذلالا، فينتصر الأب لولده الصغير، فتزداد مشاعر الغضب، وتستبد تلك المشاعر بتفكير الإنسان، ويفكر بعضهم بقتل ذلك الأخ، وينصرف الجميع إلى إلقائه في غيابات جب مهجور في طريق بعيد، ويحزن الأب ويتألم، ولا يملك إلا أن يصبر الصبر الجميل.

وتقود العناية الإلهية التي احتضنت هذا الطفل مسيرته، وتطوقه بما يضمن له السلامة، ويجد نفسه في رحاب قصر عظيم السلطان وفي قبضة امرأة أحكمت طوقها حوله، أحبته وتعلقت به وشغفها حبا وراودته عن نفسه فاستعصم، وجرح كبرياءها وأذل أنوثتها وكيف يمكن لمثله أن يرفض هذا الشرف العظيم، وأرادت أن تذله كما أذلها وأن تجرحه كما جرحها، وأن تقول للناس جميعا بأنها الأقوى والأقدر، فرمته في السجن غلاما منسيّا، وكان يمكن أن يظل في السجن ولا يذكره أحد، وأعطاه الله سلاح التأويل، وأمده بمعجزة، وسلط على مصر قحطا، وخرج من السجن بعد أن شهدت له تلك المرأة بحسن السلوك وأصبح صاحب سلطة ونفوذ، ووقف إخوته بين يديه يطلبون منه الطعام ويخرون بين يديه سجدا، يلتمسون منه العفو والصفح والمغفرة...

وهكذا تمضي القصة في القرآن، في أداء دورها في الإقناع والتأثير، مخاطبة الإنسان، مستلهمة العبر من التاريخ، مستشهدة بمواقف مشهودة ومعلومة، مؤكدة دور الأنبياء والرسل في إصلاح المجتمع ومقاومة رموز الشر فيه، داعية إلى الاعتبار من التاريخ معززة القيم الإنسانية مبشرة الإنسان بغد ينتصر فيه الخير على الشر والعدل على الظلم.

المحاضرة العاشرة: القراءات القرآنيّة

القراءات القرآنية[1]:

يراد بالقراءات القرآنية " العلم بكيفية أداء القرآن من حيث نطق الألفاظ أو اختلاف تركيبها"، بحيث تكون القراءة موافقة لما ثبت نقله عن القراء الأوائل الذين اشتهروا بحفظ القرآن وضبطه.

هل القراءات سبعٌ فحسب؟

ومن الثابت لدى علماء القراءات أن القراءات ليست هي الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وكلمة القراءات السبع هي التي أوجدت ذلك اللبس في المصطلحات، والقراءات ليست منحصرة بسبع قراءات، فهناك أكثر من ذلك، ولكن ابن مجاهد شيخ قراء عصره في بغداد المتوفى سنة 324 هـ، حاول أن يضبط القراءات الكثيرة التي انتشرت في البلاد الإسلامية، وكان بعضها ليس موثقا، فحاول أن يجمع القراءات، وأن يستخرج منها ما كان ثابتا عن طريق الرواية المتواترة بنقل الثقات من القراء، فاعتمد سبع قراءات، ووثقها، وثبت لديه أن قراءها عرفوا بالثقة والضبط والأمانة، وعرفت هذه القراءات بالقراءات السبع...

وتحديد عدد القراءات المعتمدة بسبع قراءات جاء بمحض الصدفة، وكان يمكن أن يكون أكثر من ذلك أو أقل، وأدى هذا العدد إلى التباس كبير لدى كثير من الناس بين الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن والقراءات السبعة التي اعتمدها ابن مجاهد في القرن الثالث واختارها من القراءات الكثيرة التي شاعت في عصره.

ولا شك أن العمل الذي قام به ابن مجاهد كان عملا عظيما وكان جهدا فائقا، لأنه استطاع أن يضع معايير دقيقة للقراءة المعتمدة الموثقة، وأن يقف وفق هذه المعايير في وجه القراءات الكثيرة التي لا يسلم بعضها من شذوذ أو ضعف، وهذا لا يعني أن القراءات الأخرى ليست صحيحة، فهناك قراءات موثوقة، وموافقة لمعايير التوثيق والضبط التي وضعها العلماء، إلا أن ابن مجاهد اقتصر في قبوله للقراءات على سبع قراءات اختارها من بين القراءات التي كانت شائعة.

قال مكي بن أبي طالب: "من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبعة التي في الحديث فقد غلط غلطا عظيما، قال: ويلزم من هذا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة وغيرهم ووافق خط المصحف ألا يكون قرآنا، وهذا غلط عظيم، فإن الذين صنعوا القراءات من الأئمة المتقدمين كأبي عبيد القاسم بن سلام وأبي حاتم السجستاني وأبي جعفر الطبري وإسماعيل القاضي قد ذكروا أضعاف هؤلاء، وكان الناس على رأس المائتين بالبصرة على قراءة ابن عمرو ويعقوب، وبالكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وبالشام على قراءة ابن عامر، وبمكة على قراءة ابن كثير، وبالمدينة على قراءة نافع، واستمروا على ذلك، فلما كان على رأس الثلاثمائة أثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب، قال: والسبب في الاقتصار على السبعة مع أن في أئمة القراء من هو أجلّ منهم قدرا ومثلهم أكثر من عددهم أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرا جدا، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف

[1] علوم القرآن لعتر ص 146 وما بعدها. المدخل للنبهاني ص185 وما بعدها.

على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إماما واحدا"[1].

وقال ابن الجزري في النشر: "كره كثير من الأئمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء، وخطئوه في ذلك، وقالوا: (ألا اقتصر على دون العدد أو زاده أو بين مراده ليخلص من لا يعلم من هذه الشبهة" .

وقال الضراب في الشافي: "التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة وإنما هو من جمع بعض المتأخرين فانتشر رأيهم أنه لا تجوز الزيادة على ذلك، وذلك لم يقل به أحد"[2].

وقال أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: " لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن أنزل عليها ليست قراءات القراء السبعة المشهورة، بل أول من جمع ذلك ابن مجاهد ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده واعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبع هي الحروف السبعة أو أن هؤلاء السبعة المعنيين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم، ولهذا قال بعض من قال من أئمة القراء: لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي إمام جامع البصرة وإمام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين"[3].

وأضاف ابن تيمية: " ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبعون من السلف والأئمة في أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين، بل من ثبتت عنده قراءة الأعمش شيخ حمزة أو قراءة يعقوب الحضرمي ونحوهما كما ثبتت عنده قراءة حمزة والكسائي فله أن يقرأ بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الإجماع والخلاف"[4].

وقال ابن الجزري[5]: " وقد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال:

أحدها: اختلاف اللفظ والمعنى واحد.

الثاني: اختلافهما جميعا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد.

الثالث: اختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد ".

ثم ختم ابن الجزري كلامه بقوله: " وكل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع أحدا من الأمة رده ولزم الإيمان به، وإن كله منزل من عند الله، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظنا أن ذلك تعارض"[6].

وقال السيوطي في الإتقان: " وقد اشتد إنكار أئمة هذا الشأن على من ظن انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية، وآخر من صرح بذلك الشيخ تقي الدين السبكي فقال في شرح المنهاج: قال الأصحاب: "تجوز

---

[1] الاتقان للسيوطي 224/1.
[2] المدخل للنبهاني ص187.
[3] النشر لابن الجزري 39/1.
[4] المرجع نفسه.
[5] المرجع نفسه 50/1.
[6] المرجع نفسه 51/1.

القراءة في الصلاة وغيرها بالقراءات السبع، ولا تجوز بالشاذة، وظاهر هذا يوهم أن غير السبع المشهور من الشواذ، وقد نقل البغوي الاتفاق على القراءة بقراءة يعقوب وأبي جعفر مع السبع المشهورة، وهذا القول هو الصواب"[1].

وفصل السبكي ذلك بقوله: "واعلم أن الخارج عن السبع المشهورة على قسمين: منه ما يخالف رسم المصحف، فهذا لا شك فيه أنه لا تجوز قراءته لا في الصلاة ولا في غيرها، ومنه ما لا يخالف رسم المصحف ولم تشتهر القراءة به، وإنما ورد من طريق غريب لا يعول عليها، وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضا، ومنه ما اشتهر عند أئمة هذا الشأن القراءة به قديما وحديثا، فهذا لا وجه للمنع منه، ومن ذلك قراءة يعقوب وغيره"[2].

أسباب تعدّد القراءات

المعتمد في القراءات القرآنية النقل والتلقي والرواية، فما ثبت نقله وتلقيه عن إمام موثوق بقراءته وحفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قراءة صحيحة، ولقد تعددت القراءات لسببين:

السّبب الأول: ثبوت نزول القرآن على سبعة أحرف، وهذا ثابت فيما رواه البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب قوله: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: كذبت، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :أرسله، اقرأ يا هشام «فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :كذلك أنزلت«، ثم قال» :اقرأ يا عمر«، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم» :كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه.«

السّبب الثاني: رسم القرآن، وروعي في رسم القرآن أن يكون شاملا للأحرف السبع، وقد ناقش (ابن الجزري) في كتابه (النشر) هذا الموضوع وقال: "وأما كون المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة فإن هذه مسألة كبيرة اختلف العلماء فيها، فذهب جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة، وبنوا على ذلك أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الحروف السبعة التي نزل القرآن بها" [3].

وأكد أن الرأي الذي عليه جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة.

وأشار بعض العلماء إلى وجود اختلافات بين المصاحف العثمانية من حيث الرسم القرآني، وحددوا أوجه الاختلاف بين مصحفي أهل المدينة والعراق باثني عشر حرفا، وهناك اختلاف بين مصحفي أهل الشام والعراق وبين مصحفي

[1] الاتقان للسيوطي 225/1.
[2] المرجع نفسه.
[3] معجم القراءات القرآنية لعبد العالم سالم مكرم وأحمد مختار عمر،ص 43.

أهل الكوفة والبصرة، وهذه الاختلافات لا تتجاوز حدود الاختلاف فيما يدل عليه الرسم، أو زيادة حرف أو نقصانه، أو استبدال حرف بآخر.

ومن أمثلة هذه الاختلافات[1]:

1- مصحف أهل المدينة: وأوصى مصحف أهل العراق (ووصّى) بنقص الألف.

2- مصحف أهل المدينة: (سارعوا) مصحف أهل العراق (وسارعوا) بزيادة الواو.

3- مصحف أهل المدينة: (يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا)، ومصحف أهل العراق: (ويقول الذين آمنوا) بزيادة الواو.

4- مصحف أهل المدينة (ومن يرتدد)، ومصحف أهل العراق :(ومن يرتد) بدال واحدة.

5- مصحف أهل المدينة :(بما كسبت أيديكم)، ومصحف أهل العراق :(فبما كسبت) بزيادة الفاء.

وهذه الاختلافات كما رأيناها لا تتجاوز حدود زيادة حرف عطف أو نقصانه، وهي لا تعتبر اختلافات بالمفهوم الحقيقي، ومع هذا فقد درسها العلماء، وحاولوا بيان أوجه الاختلاف وهو لا يتجاوز اختلاف رسم وأدى ذلك إلى اختلاف في القراءات..

وقال الشيخ محمد حسنين مخلوف في كتابه (عنوان البيان في علوم التبيان) في هذا الموضوع: "إن هذا الاختلاف بين تلك المصاحف إنما هو اختلاف قراءات في لغة واحدة لا اختلاف لغات، قصد بإثباته إنفاذ ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين واشتهاره بينهم"[2].

وهذا يؤكد لنا أن المصاحف العثمانية اتسعت لجميع القراءات وجميع الروايات التي نقلت إلينا عن طريق أئمة القراء الذين اشتهروا بجودة الحفظ وعمق المعرفة بالقراءات صحيحة.

"والحاصل أن المصاحف العثمانية كتبت لتسع من القراءات ما يرسم بصور مختلفة إثباتا وحذفا وإبدالا، فكتبت في بعضها برواية، وفي بعضها برواية أخرى تقليلا للاختلافات في الجهة الواحدة بقدر الإمكان، فكما اقتصر على لغة واحدة في جميع المصاحف اقتصر على رسم رواية واحدة في كل مصحف، والمدار في القراءة على عدم الخروج عن رسم تلك المصاحف، ولذلك لا يخطر على أهل أي جهة أن يقرءوا بما يقتضيه رسم الجهة الأخرى"[3].

وعلّل (ابن الجزري) تجريد المصاحف العثمانية من النقط والشكل ليحتملها ما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الرأي يطرح علة جديدة لعدم النقض ويفسر عدم النقض لكي يستوعب المصحف القراءات القرآنية المتفقة مع الرسم.

مقاييس القراءة الصّحيحة:

وضع الحافظ أبو بكر بن مجاهد البغدادي المتوفى سنة 324 هـ معايير للقراءة الصحيحة، وكان ابن مجاهد شيخ القراء في بغداد وأبرز علماء عصره في القراءة، قال عنه ابن النديم في الفهرست: "كان واحد عصره غير مدافع، وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلم القرآن حسن الأدب، رقيق الخلق، كثير المداعبة، ثاقب الفطنة جوادا،

[1] معجم القراءات القرآنية ص 44-45.
[2] المرجع نفسه ص 50.
[3] المرجع نفسه.

وكانت حلقات دروسه غاصة بالقراء، يتعلمون منه علم القراءات".

واختار ابن مجاهد سبع قراءات، اعتبرها القراءات التي وقع الاتفاق عليها، وهي منسوبة لسبعة قراء، ولكل قارئ منهم سنده في روايته، وحجته فيما يقرأ، واختار قراءة السبعة من قراء الحجاز والعراق والشام ممن أتقن القراءة، وتعلم أصولها وقواعدها.

وانتقد بعض العلماء (ابن مجاهد)، لأنه اختار سبعة قراء وكان بإمكانه أن يضيف إليهم بعض القراء الآخرين الذين لا يقلون عنهم مكانة، وقراءتهم لا تختلف عن القراءات السبع من حيث الدقة والصحة والشهرة والضبط، فضلا عما أدى إليه اختيار هذا العدد من لبس واشتباه لدى عوام الناس الذين لم يفرقوا بين القراءات السبع والأحرف السبعة، وبينهما فرق كبير..

وقد وضع العلماء مقاييس دقيقة للقراءة القرآنية الصحيحة، وبمقتضى هذه المقاييس تتسع دائرة القراءات الصحيحة.

مقاييس القراءات الصحيحة عند ابن الجزري[1]:

المقياس الأول: موافقة العربية ولو بوجه:

الأصل في القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لقواعد اللغة العربية، نظرا لأن القرآن نزل بلغة عربية، ولا يتصور أن تكون هناك قراءة ليست متلائمة مع القواعد النحوية، ومع هذا فإن علماء القراءات يعتمدون في صحة القراءة القرآنية على الإسناد الصحيح، ولا يبحثون عن مطابقة القراءة للقواعد النحوية، قال الداني: "وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها"[2].

ولا يحتج البصريون بالقراءات إلا حينما تتفق مع أصولهم، ويرى الكوفيون أن القراءات يجب أن تشتق منها المقاييس النحوية لأن سندها الرواية، وهي أقوى في مجال الاستشهاد من الشعر، وهذا هو الأصل، إذ لا يتصور أن يتم الاستشهاد بالشعر وهو قول بشر، ولا يحتج بالقراءات في مجال النحو، وانتقد ابن حزم موقف البصريين في ذلك...

ولا شك أن هذا الخلاف بين القراء والنحويين أدى إلى نشاط لغوي كبير، وازدهرت بفضله حركة النقد والتخريج للقراءات، وقد أثرى هذا الخلاف المدارس النحوية، وعمق حوارها اللغوي...

المقياس الثاني: موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا:

وهذا المقياس يجعل المصاحف العثمانية هي الأساس في القراءات القرآنية، بحيث تتوافق القراءة الثابتة عن طريق النقل والرواية بما جاء في المصاحف العثمانية ولو احتمالا، لأن الرسم العثماني قد يخالف بعض القراءات، في زيادة حرف أو نقصانه أو إدغامه في حرف آخر، كما في قوله: (مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، فقد كتبت بغير ألف في الرسم القرآني، وكذلك قوله: وأوصى، ووصّى.

---

[1] النشر لابن الجزري 9/1 وما بعدها.

[2] الاتقان للسيوطي 211/1. وفسّر ابن الجزري قوله في الضبط (ولو بوجه) نريد بها وجها من وجوه النحو سواء كان أفصح أوفصيحا مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لايعنى مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، انظر: النشر 9/1-10.

وأكد ابن الجزري أن مخالف صريح الرسم في حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك لا يعد مخالفا إذا ثبتت القراءة به ووردت مشهورة مستفاضة وفرق بين مخالفة الرسم في زيادة حرف زائد أو نقصانه وبين مخالفة الرسم بزيادة كلمة أو نقصانها، ولو كانت تلك الكلمة حرفا من حروف المعاني، فإن حكم ذلك الحرف كحكم زيادة أو نقصان كلمة، ولا تجوز مخالفة الرسم فيه.

وهذا معيار دقيق في طبيعة العلاقة بين القراءات القرآنية والرسم العثماني، فالمصحف العثماني هو المصحف الذي أجمعت الأمة على قبوله والرسم العثماني هو النص القرآني الثابت، ولا يجوز لأية قراءة أن تخالفه أو تخرج عنه بإضافة كلمة أو نقصانها، ما لم يكن ذلك الاختلاف محصورا في حرف لا يترتب عليه أي تغيير في المعنى كحروف الزوائد.

المقياس الثالث: صحّة السّند:

يشترط في القراءة القرآنية الصحيحة والمعتمدة والمقبولة أن يكون سندها صحيحا، بنقل العدل الضابط عن مثله، وتكون مشهورة عند القراء الثقات، فإذا لم تكن القراءة صحيحة السند بنقل الثقات فلا تقبل، ولو وافقت الرسم القرآني، واشترط بعض العلماء التواتر في الرواية، فإذا انتفى النقل في القراءة فلا مجال لقبولها، وإن جاءت موافقة لكل من الرسم وقواعد العربية، لأن النقل هو الشرط الأهم في إثبات القراءات...

والأجدر في هذا المجال أن يقال بأن المقياس في قبول القراءات صحة الرواية وهو شرط وحيد ومقياس لا خلاف فيه، ولكي يتم اعتماد هذا النقل لابد فيه من موافقة تلك القراءة لقواعد العربية والرسم القرآني، واعتبار مقياس النقل هو الأساس يخرجنا من تناقض واضح فيما يتعلق بأهمية المقاييس الثلاثة، ومقياس الرسم هو قرينة لصحة الرواية، ولا يمكن اعتباره كافيا في قبول القراءة...

ونقل السيوطي في الإتقان عن الكواشي قوله: "كل ما صح سنده واستقام وجهه في العربية ووافق خط المصحف الإمام فهو من السبعة المنصوصة، ومتى فقد شرط من الثلاثة فهو الشاذ"[1].

وأكد (ابن الجزري) مقاييسه للتفريق بين القراءات الصحيحة والقراءات الشاذة والضعيفة في أول كتابه (النشر):

"كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف"[2].

وقال أبو شامة في المرشد الوجيز: " لا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحيحة. وأنها أنزلت هكذا، إلا إذا دخلت في ذلك الضابط، وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره، ولا يختص ذلك بنقلها عنهم، بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة، فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف

[1] الاتقان للسيوطي 255/1.
[2] النشر لابن الجزري 9/1.

لا على من تنسب إليه، فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم"[1].

ثم شرح (ابن الجزري) هذه المعايير والضوابط، من حيث موافقة العربية ولو بوجه، أي نريد به وجها من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا، ونعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتا في بعضها دون بعض، وموافقة الرسم ولو احتمالا ولو تقديرا[2].

القراءات الشاّذّة:

يراد بالقراءات الشاذة تلك القراءات التي لم تبلغ درجة الصحة في ثبوتها، وفي رأي ابن مجاهد أن القراءات السبعة هي القراءات الصحيحة، وما عداها فهو قراءات شاذة، ولم يوافق العلماء على هذا التحديد، ووضعوا مقاييس للقراءة الصحيحة والشاذة، وهي أن كل قراءة توفرت فيها شروط القبول الثلاثة تعتبر قراءة صحيحة، وما لم تتوفر فيه تلك الشروط من حيث الصحة وموافقة العربية والرسم العثماني فهو شاذ، وانتقد العلماء تحديد القراءات الصحيحة بسبعة قراءات، ورأوا أن تطبيق المقاييس هي الطريق الأدق لمعرفة القراءات الصحيحة من القراءات الشاذة...

واهتم العلماء بالقراءات الشاذة، من حيث إثبات الشذوذ والضعف فيها، وأفردوا لها مؤلفات قيمة، وناقشوا مواطن الشذوذ فيها، وحكم القراءة بها.

ومن أهم الكتب التي ألّفت في القراءات الشاذة، كتاب المحتسب لابن جني، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري، وكتاب الشواذ لأبي العباس المعروف بثعلب النحوي، وكتاب المصاحف لأبي داود السجستاني، وكتاب الشواذ لابن مجاهد، وكتاب البديع لابن خالويه وكتاب المحتوى في القراءات الشواذ لأبي عمرو الداني، واللوامح لأبي فضل الرازي، وشوق العروس لأبي معشر الطبري القطان...

واختلف العلماء في حكم الصلاة بالقراءة الشاذة على أقوال[3]:

الأول: عدم جواز الصلاة بالقراءة الشاذة، لعدم ثبوت هذه القراءات عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذهب إلى هذا الرأي جمهور العلماء.

الثاني: جواز الصلاة بالقراءة الشاذة، نسب إلى الشافعي وأبي حنيفة.

الثالث: لا يجوز أن يقرأ بها في القراءة الواجبة في الصلاة لعدم التيقن من أداء الواجب، ويجوز أن يقرأ بها فيما عدا ذلك.

فوائد اختلاف القراءات:

[1] النشر 9/1.
[2] أورد ابن الجزري أمثلة واضحة من هذه الضوابط ومدى تطبيقها على القراءات والقراء.
[3] معجم القراءات القرآنية ص 113.

لخّص السيوطي فوائد اختلاف القراءات بما يلي[1]:

أولا: التهوين والتخفيف على الأمة...

ثانيا: إظهار شرف الأمة الإسلامية وفضلها بما ميزها الله به على غيرها من الأمم.

ثالثا: إعظام الأجر على تحقيق كتاب الله وضبط لفظه وتتبع معانيه واستنباط أحكامه وحكمه والكشف عن أوجه التعليل والترجيح فيه..

رابعا: إظهار سر الله في كتابه وصيانته له عن التبديل والاختلاف.

خامسا: المبالغة في إعجازه بإيجازه عن طريق تنوع القراءات..

سادسا: إظهار بعض المعاني في بعض القراءات مما يجهل في القراءات الأخرى، ولا شك أن ظاهرة تعدد القراءات تؤكد لنا حقيقة أساسية تتمثل في أمرين اثنين:

الأمر الأول: عناية العلماء بكتاب الله، وحرصهم على ضبط القراءات القرآنية التي ثبت عن طريق النقل الصحيح بالسند المتصل الموثوق بروايته أنها من أوجه القراءات التي أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمدها تيسيرا على الأمة ومراعاة لتعدد لهجاتها وطرقها في التعبير، وأساليبها في الخطاب.

الأمر الثاني: توقيف كل ما يتعلق بالقرآن، قراءة له، ورسما لكلماته وحروفه، وأداء لألفاظه، وضبطا لكيفيات نطق كلماته وعباراته، بحيث تقتصر مهمة القراء على تتبع الروايات المنقولة عن الثقات والتأكد من حصة تلك الروايات.. والفرق بين الرواية الصحيحة والرواية الشاذة يظهر في مدى قوة السند وضبط الرواة، وإذا كانت المقاييس لقبول القراءة الصحيحة تشترط لقبول الرواية بالإضافة إلى صحة السند ملائمة القراءة لكل من قواعد اللغة والرسم العثماني، فإن صحة السند هي الأساس وهي المعيار الأقوى والأكثر سدادا واعتبارا في هذا الموضوع.

واشترط العلماء الدقة في كل ما يتعلق بالقرآن، والضبط في نقل القراءات عن القراء من الصحابة والتابعين الذين اشتهروا بالإقراء وحسن المعرفة بالقرآن...

أنواع القراءات:

نقل السيوطي عن القاضي جلال الدين البلقيني قوله:

" القراءة تنقسم إلى متواتر وآحاد وشاذ، فالمتواتر: القراءات السبعة المشهورة، والآحاد: قراءات الثلاثة التي هي تمام العشر، ويلحق بها قراءة الصحابة، والشاذ: قراءات التابعين كالأعمش ويحي بن ثابت وابن جبير ونحوهم"[2].

ولم يوافقه على هذا التقسيم وقال: (هذا الكلام فيه نظر)[3]، واختار السيوطي كلام ابن الجزري في كتابه النشر الذي وضع معيارا موضوعيا للقراءة الصحيحة ومقياسا دقيقا، وهي الرواية التي صح سندها ووافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا[4] وفسر ابن الجزري معنى قوله وافقت العربية (ولو بوجه) نريد به وجها

---

[1] الاتقان 227/1.
[2] المرجع نفسه 210/1.
[3] المرجع نفسه.
[4] المرجع نفسه 211/1.

من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم فصيحا مجمعا عليه أم مختلفا فيه، وقسم السيوطي القراءات إلى ستة أنواع[1]:

الأول: المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثله إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

الثاني: المشهور: وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ووافق العربية والرسم، واشتهر عند القراء، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ... ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض...

الثالث: الآحاد: وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، ولا يقرأ به، من ذلك ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ:(مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ) – الرحمن: 76، ومن حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ:(فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) – السجدة: 17.

الرابع: الشاذ: وهو ما لم يصح سنده ومنه قراءة: ملك يوم الجنّة وهم هذا ينفقون رزقناهم المضاجع يستكبرون بصيغة الماضي ونصب يوم.

الخامس: الموضوع: وهو ما ثبت أنه ليس له أصل، كقراءات أبي جعفر الخزاعي التي نسبها إلى أبي حنيفة.

السادس: وهو ما يشبه حديث المدرج، ويراد به الزيادة على وجه التفسير، كقراءة سعد:(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ – في مواسم الحج –) – البقرة: 198.

قال ابن الجزري: "ربما كانوا يدخلون التفسير في القراءة إيضاحا وبيانا، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرآنا، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه".

وقال السيوطي: " لا خلاف أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترا في أصله وأجزائه، ولما في محله ووضعه وترتيبه.. للقطع بأن العادة تقضي بالتواتر في تفاصيل مثله، لأن هذا المعجز العظيم الذي هو أصل الدين القويم والصراط المستقيم مما تتوفر الدواعي على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحادا ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن قطعا"[2].

المصاحف العثمانية والأحرف السبعة:

اختلف العلماء في مدى اشتمال المصاحف العثمانية على جميع الأحرف السبعة على قولين[3]:

القول الأول: ذهب جماعة من القراء والفقهاء والمتكلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة، وبنوا هذا الرأي على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة، وهذا المصحف الذي أجمعت الأمة عليه وعلى ترك ما سواه لا يمكن أن يهمل الأحرف السبعة...

القول الثاني: ذهب جمهور السلف والخلف إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل.

---

[1] الاتقان 1/214-215.
[2] المرجع نفسه 1/218.
[3] النشر 1/31.

وعلق ابن الجزري على هذا القول بقوله: "وهذا القول هو الذي يظهر صوابه، لأن الأحاديث الصحيحة والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له، وفي معرض الرد على الإشكال الذي طرحه أصحاب الرأي الأول استشهدوا لكلام الإمام محمد بن جرير الطبري أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان ذلك جائزا لهم ومرخصا فيه، وقد جعل لهم الاختيار في أي حرف قرءوا به، كما في الأحاديث الصحيحة، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعا سائغا وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور، وقال بعضهم:
إن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة"[1].

أوّل من ألّف في القراءات:

وأول من قام بجمع القراءات وضبطها في كتاب هو أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 224 هـ، وقام بهذا العمل العظيم بعد أن تعددت القراءات وكثر القراء، وخاف من فتنة وفوضى واضطراب، فتصدى لهذا العمل العظيم، حيث قام بضبط بعض القراءات، وجمع خمسا وعشرين قراءة، ثم جاء بعده أحمد بن جبير الكوفي سنة 258 هـ، وجمع خمس قراءات من كل مصر، ثم جاء بعد ذلك القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي فألف كتابا في القراءات وجمع فيه عشرين قراءة، ثم جاء بعد ذلك الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310، فألف كتابه الجامع، وجمع فيه أكثر من عشرين قراءة، ثم تتالت المؤلفات والمصنفات في القراءات، ثم انتقلت هذه القراءات إلى الأندلس في أواخر القرن الرابع، وكان أبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي مؤلف كتاب (الروضة) أول من أدخل القراءات إلى الأندلس ثم تبعه مكي بن أبي طالب القيسي مؤلف التبصرة، ثم الحافظ أبو عمرو الداني مؤلف التيسير وجامع البيان[2]...

ثم استمرت حركة التأليف في القراءات، ولم ينكر أحد على أحد قراءته ما دامت تلك القراءة خاضعة للمقاييس التي وضعها علماء القراءات، من حيث موافقتها للمصاحف العثمانية وثبوت نقلها عن القراء الثقات الذين نقلوها عن الصحابة...

ورد (ابن الجزري) في كتابه (النشر) على من حدد القراءات بعدد أو اعتبر أن القراءات المقبولة هي سبع قراءات، ظنا منهم أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة الواردة في الحديث... وعلل اقتصار أهل الأمصار على القراء السبعة المشهورين، بأنه من باب الاختصار، وذهب إليه بعض المتأخرين لقطع الطريق على القراءات الشاذة، وأنكر على ابن

[1] النشر 1/31-32.
[2] المرجع نفسه 1/34.

مجاهد سبع هؤلاء السبعة فعله في تحديد القراءات بالسبع، فقد فعل ما لا ينبغي أن يفعله، وأشكل الأمر على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله[1].

القرّاء السّبعة:

اشتهر عدد من الصحابة بإقراء القرآن، هم: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري...

وأخذ التابعون عن الصحابة، واشتهر عدد من التابعين بالقراءة، في كل من المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام، واشتهر من قراء التابعين عدد منهم انصرفوا إلى العناية بالقرآن، وقاموا بضبطه، وانشغلوا بحفظه، وتفرغوا لإقرائه وتعليمه.

أبرز قراء التابعين:

ومن أبرز قراء التابعين ما يلي:

-قراء المدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، شيبة بن نصاح، نافع بن أبي نعيم...

-قراء مكة: عبد الله بن كثير، حميد بن قيس الأعرج، محمد بن محيصن.

-قراء الكوفة: يحي بن وثاب، عاصم بن أبي النجود، سليمان الأعمش، حمزة، الكسائي.

-قراء الشام: عبد الله بن عامر، عطية بن قيس الكلابي، إسماعيل بن عبد الله ابن المهاجر، يحي بن الحارث الذماري، شريح بن يزيد الحضرمي.

واشتهر من هؤلاء سبعة قراء، عرفوا بالقراءة السبعة، اختارهم أبو بكر بن مجاهد البغدادي شيخ القراء ببغداد، وهم[2]:

الأول: ابن عامر:

هو أبو عمران عبد الله بن عامر اليحصبي، المتوفى سنة 118 هـ، كان من التابعين، وإمام أهل الشام وقاضيهم وشيخ القراء بدمشق وإمام المسجد الأموي، أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، وعن أبي الدرداء، واشتهر برواية قراءته كل من هشام وابن زكوان وكانا من أبرز قراء الشام.

الثاني: ابن كثير:

هو عبد الله بن كثير الداري ويكنى بأبي معبد توفي سنة 120 هـ، وكان شيخ مكة وإمامها في القراءة، لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، واشتهر بالرواية عنه كل من البزي وقنبل وكانا من أبرز قراء مكة.

---

[1] النشر 34/1.

[2] انظر: معجم القراءات القرآنية ص 79-89. ومناهل العرفان للزرقاني 449/1. زتفصيل ذلك في الجزء الأول من كتاب النشر لابن الجزري.

الثالث: عاصم:

هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، المتوفى بالكوفة سنة 127 هـ، وكان عاصم شيخ القراء بالكوفة، ومن أكثرهم فصاحة وإتقانا، وروى عنه قراءته كل من شعبة وحفص.

الرابع: نافع:

هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني المتوفى سنة 167 هـ، أخذ القراءة عن سبعين من التابعين، وهم أخذوا قراءتهم عن ابن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب، كان (نافع) شيخ القراء بالمدينة واشتهر بالرواية عنه كل من قالون وورش...

الخامس: الكسائي:

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي المتوفى سنة 189 هـ، وكان الكسائي أعلم الناس بالنحو، وكان فارسي الأصل، وانتهت إليه الرئاسة في الكوفة في القراءة والنحو واللغة، وكان يجلس على منبر الكوفة فتضبط المصاحف بقراءته...

واشتهر بالرواية عنه كل من أبي الحارث والدوري.

السادس: أبو عمرو:

هو أبو عمرو زيان بن العلاء بن عمار المازني البصري المتوفى سنة 154 هـ، كان إمام البصرة، وأعلم الناس بالقرآن والعربية، وكان يلقب بسيد القراء، واشتهر بالرواية عنه كل من الدوري والسوسي.

السابع: حمزة:

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة المتوفى سنة 156 هـ، وكان من تابعي التابعين، وعرف بالورع والتقى، واشتهر بالحديث والفرائض، واشتهر عنه كل من خلف بن هشام وخلاد بن خالد.

هؤلاء هم القراء السبعة الذين اختارهم ابن مجاهد، واعتبرهم أبرز قراء عصرهم الذين خلفوا التابعين في القراءة، واشتهر أمرهم في الشام والعراق والحجاز...

أما القراءات الثلاث المكملة للعشر فهي:

1- قراءة أبي جعفر:

وهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المتوفى سنة 130 هـ، وكان من التابعين، وكان إمام المدينة المنورة، وروى مجاهد عن أبي الزناد قوله: لم يكن بالمدينة أحد أقرأ للسنة من أبي جعفر، أخذ قراءته عن ابن عباس وأبي هريرة عن أبي بن كعب، اشتهر بالرواية عنه كل من أبي موسى بن وردان المدني وأبي الربيع سليمان بن حجاز...

2- قراءة يعقوب:

وهو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصري، المتوفى سنة 205 هـ، وكان إماما في القراءة، وانتهت إليه رئاسة

القراء بالبصرة بعد أبي عمرو، وصفه أبو حاتم السجستاني بأنه كان أعلم من رآه بالحروف والاختلاف في القرآن وعلله ومذاهب النحو وأروى الناس لحروف القرآن.

واشتهر بالرواية عنه كل من روح بن عبد المؤمن، ومحمد بن المتوكل المعروف برويس وكان من أحفظ أصحاب يعقوب...

3- قراءة خلف:

هو أبو محمد خلف بن هشام البزار المتوفى سنة 229 هـ، واشتهر بالرواية عنه كل من أبي يعقوب المروزي البغدادي وأبي حسن إدريس الحدّاد البغدادي..

القراءات الأربعة الشاذة:

أما القراءات الأربعة الشاذة فهي:

-1قراءة الحسن البصري إمام البصرة المتوفى سنة 110 هـ.

-2قراءة ابن محيصن المكي المتوفى سنة 123 هـ.

-3قراءة اليزيدي البصري المتوفى سنة 202 هـ.

-4قراءة الأعمش الأسدي المتوفى سنة 148 هـ.

والقراءات السبع متواترة بالإجماع، ووقع خلاف في الروايات الثلاثة المكملة للعشرة، وهي قراءة أبي جعفر وقراءة يعقوب وقراءة خلف، والصحيح عند العلماء أن الروايات الثلاث المكملة للعشر متواترة، ولا تختلف من حيث التواتر عن القراءات السبع، وأنكر علماء القراءات التفريق بين القراءات العشر من حيث التواتر، واعتبروا أن هذا التقسيم بين القراءات السبع والقراءات الثلاث المكملة للعشر، لا يعتمد على دليل.

ولا شك أن معيار القراءة الصحيحة هي ما صح سندها ووافقت العربية ولو بوجه ووافقت خط المصحف الإمام، فإذا انتفى شرط من هذه الشروط اعتبرت القراءة شاذة، ولا تجوز الصلاة بالقراءة الشاذة، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، فإذا جاءت رواية أحادية في كيفية نطق كلمة لا تقبل، وإن توافرت فيها شروط الصحة، لأنه يشترط في الثبوت أن يصل إلى درجة الشهرة وتلقّي الأمة لهذه القراءة بالقبول، وهذا دليل على التواتر والقطعية...

والتشدد في المعايير المرتبطة بثبوت القرآن فضيلة لأنه يؤكد حجم العناية بكتاب الله، ويؤكد في نفس الوقت أن العلماء تشددوا أقوى ما يكون التشدد في قبول القراءات لئلا يقع أي التباس أو شبهة في قطعية القراءات القرآنية...

وهذا المنهج العلمي الذي نجد ملامحه واضحة في كتب القراءات لا يترك أي ثغرة في مجال إثبات قطعية القرآن، من حيث القراءة والأداء، وهو يتحدى كل المناهج العلمية من حيث الدقة، ويزيل كل شبهة، ولا يترك مجالا للشك أو التردد، وعلم علمي كهذا لا يمكن إلا أن يقع الاعتراف بعظمته والثقة بنتائجه والاطمئنان إلى سلامته.

ونقل الزركشي عن (مكي) قوله:

والسبب في اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم أن عثمان رضي الله عنه لما كتب المصاحف، ووجهها إلى الأمصار،

وكان القراء في العصر الثاني والثالث كثيري العدد، فأراد الناس أن يقتصروا في العصر الرابع على ما وافق المصحف، فنظروا إلى إمام مشهور بالفقه والأمانة في النقل، وحسن الدين وكمال العلم قد طال عمره واشتهر أمره، وأجمع أهل مصر على عدالته، فأفردوا من كل مصر وجه إليه عثمان مصحفا إماما هذه صفة قراءته على مصحف ذلك المصر، فكان أبو عمر من أهل البصرة، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها، والكسائي من العراق، وابن كثير من أهل مكة، وابن عامر من أهل الشام، ونافع من أهل المدينة، كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم في الإقراء وارتحل الناس إليهم من البلدان[1].

وعلّل الهروي في كتابه الكافي التفريق بين القراءات بقوله:

" ثم إن التمسك بقراءة سبعة فقط ليس له أثر ولا سنة، وإنما السنة أن تؤخذ القراءة إذا اتصلت روايتها نقلا وقراءة ولفظا، ولم يوجد طعن على أحد من رواتها، ولهذا المعنى قدمنا السبعة على غيرهم وكذلك نقدم أبا يعقوب وجعفر على غيرهما[2].

ومعيار القراءة الصحيحة واضح لدى جميع العلماء، ولا مجال للخلاف فيه، وأكد هذا الشيخ شهاب أبو شامة بقوله: "كل قراءة صحيحة معتبرة، فإذا اختل أحد هذه الأركان الثلاثة أطلق على تلك القراءة أنها شاذة وضعيفة"[3].

[1] البرهان للزركشي 329/1-330.
[2] الملاجع نفسه .
[3] المرجع نفسه 331/1.

المحاضرة الحادية عشر: التّفسير؛ تاريخه وطرقه

تعريف التّفسير [1]:

التّفسير في اللّغة : مأخوذ من مادة "فَسَرَ": وهي كلمة تدور على معنى ظهور الشيء , وبيانه, وتوضيحه كما قال تعالى: (**وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**) – الفرقان 33- أي: تفصيلا وتوضيحا , ومنه فسّرت الحديث؛ إذا بيّنته ووضّحته.

التفسير في الاصطلاح :

"علم يعرف به فهم كتاب الله ؛ المنزل على نبيه محمد ﷺ , وبيان معانيه , واستخراج أحكامه وحكمه".

وقيل: "علم يفهم به كلام الله ﷻ على قدر الطاقة البشرية".

أهمّية تدبّر القرآن :

أمرنا الله ﷻ بتدبر هذا الكتاب العزيز , والسعي لفهم معانيه ؛ لأن ذلك طريق الإيمان، والعمل الصالح، قال ابن قيم الجوزية: " ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر, ويتفكر فيه, ويعمل به, لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه , فالقرآن أولى بذلك , وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه , فكيف بكلام الله ؛ الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ".

ومما يؤكد على أهمية فهم القرآن أن الله ذمَّ كل من أعرض عن تدبر معانيه، فقال تعالى: (**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**) – محمد 24-. وما ضلَّت الفرق من أمّة الإسلام إلاّ لعدم فهمهم القرآن الكريم.

طرق تفسير القرآن الكريم :

نسبة لاختلاف مناهج ودرجات المفسرين في فهم وتفسير القرآن الكريم , وضع العلماء طرقاً ينبغي أن يسير عليها كل من أراد أن يفسر هذا الكتاب العزيز وفق منهج سليم وهي ستة طرق متدرجة متوالية وفقها يفهم القرآن وتستنبط معانيه وحكمه وهي:

[1] البرهان للزركشي، 137/2 ومابعدها.

1– تفسير القرآن بالقرآن : هو أعلى أنواع التفسير؛ لأنه توضيح لكلام الله بكلام الله؛ فإن القرآن الكريم قد يجمل في موضع ويفصل في موضع آخر , ويعمم في موضع ويخص في موضع آخر , ويطلق الحكم في موضع ويقيده في موضع آخر ونحو ذلك ، وأول من اعتنى بهذا النوع من التفسير هو النبي ﷺ ؛ فقد فسر ما أشكل على الصحابة .

2– تفسير القرآن بالسنة :

إذا لم نجد للقرآن تفسيراً في القرآن رجعنا إلى السنة النبوية وذلك لأن النبي ﷺ هو أعلم الخلق بعد معلمه جبريل بالقرآن الكريم, وقد تكفل الله له ببيانه، وهو معصوم بالوحي، وهو المكلف بشرحه وبيانه للناس من خلال أقواله, وأفعاله, وتقريراته, وصفاته, فلا عجب أن يكون أعلم الناس به.

3– تفسير القرآن بأقوال الصحابة :

إذا لم يجد الإنسان تفسيراً للقرآن في القرآن , ولا في السنة , رجع إلى أقوال أصحاب النبي ﷺ وذلك للآتي :

أ– أنهم تعلموا على يد أعظم معلم ، بل أكثر المعلمين بركة ألا وهو النبي ﷺ ، فهو الذي قد وضح لهم معاني القرآن بأوضح بيان , شرح لهم معانيه , وفصل لهم مجمل أحكامه , وبين لهم ما أشكل عليهم من فهم , ورعاهم رعاية خاصة , ودعا لبعضهم بفقهه .

ب– أننا أمرنا بالاقتداء بهم , واتباع منهجهم , لما لهم من فهم صائب , وعمل صالح.

ج– أنهم شاهدوا التنزيل وعاصروا الوحي , وعرفوا أحوال نزول القرآن, فهم أعرف الناس بأسباب نزوله , وناسخه ومنسوخه , وعامه وخاصه , ومطلقه ومقيده , ومحكمه ومتشابهه ونحو ذلك .

د– أنهم كانوا أهل لغة ونزل القرآن بلغتهم , فهم أفهم الناس لمعانيه,وأحكامه , وهديه .

4– تفسير القرآن بأقوال التابعين :

إذا لم نجد تفسيراً للآية في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة رجع كثير من العلماء إلى أقوال التابعين وذلك :

أ– أنهم تعلموا على يد أصحاب النبي ﷺ ؛ خاصة الذين أخذوا منهم علماً كثيراً كمجاهد وسعيد بن جبير , وعكرمة مولى ابن عباس , وعطاء بن أبي رباح , وغيرهم .

ب– أنهم عاشوا في القرون المفضلة ؛ التي قربت من عصر النبوة, ولم تظهر فيها البدع المضلة ظهوراً بيّناً .

ج– لأنهم عاشوا في عصر اللغة الذهبي قبل أن تفسد العجمة اللسان العربي, فهم أعلم الناس بعد أصحاب النبي ﷺ بلغة القرآن.

د- أنهم كانوا أئمة في العلم والصلاح, عرفوا باستقامة في المنهج ، وصلاح في المعتقد ، وحسن سيرة في العبادة وصدق وأمانة وورع وتقوى.

تفسير القرآن وفق لغة العرب :

إذا لم يجد المفسر لتفسير الآية تفسيراً لا في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة, ولا في أقوال التابعين يرجع الإنسان إلى اللغة العربية التي نزل هذا القرآن بها كما قال تعالى: **(وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)** ولا يمكن لإنسان يجهل لغة العرب نحواً وصرفا وبلاغة ومعنىً أن يفسر القرآن.

تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد :

وهذا النوع قسمه العلماء إلى قسمين: رأي محمود, ورأي مذموم .

أ/ فالرأي المحمود: هو كل رأي مستمد من القرآن والسنة, وكان صاحبه عالماً باللغة العربية وأساليبها والشريعة وأصولها .

ولكن ينبغي أن يكون الرأي والاجتهاد فيما لا مجال للنص فيه , وليس للنبي ﷺ فيه قول قاطع , ولابد أن يكون ممن كان أهل للاجتهاد , ممن عرف لغة القرآن , وألم بقواعد الشرع وأصوله .

ب/ الرأي المذموم: هو تفسير القرآن بمجرد الرأي والهوى, وهو مذموم لأنه قول على الله بغير علم في كلام الله ، وهو من كبائر الذنوب ، ومن أعظم ما نهى الله عنه قال تعالى: **(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولآئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)** – الإسراء 36 – ولما روى عن النبي ﷺ : " من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار " ، وكل الأدلة التي جاءت عن النبي ﷺ وما نقل عن الصحابة في ذم الرأي إنما المراد به هذا النوع من أنواع الرأي وهو الرأي المذموم .

أهمّ كتب التفسير :

نذكر هنا أمثلة لكتب في التفسير اجتمعت فيها كل طرق التفسير الصحيح أو غالبها, وذلك لأنها قامت على منهج سليم والأخذ منها أولى من غيرها؛ حتى يستطيع الإنسان أن يميز بعد ذلك وهو يقرأ في الكتب الأخرى المفيدة لكنها لم تخلُ من ملاحظات عليها:

1- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري والمتوفى سنة "310هـ.

2- معالم التنزيل : للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة 516هـ

3- تفسير القرآن العظيم: للإمام أبي الفداء عماد الدين بن إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي توفي سنة 774هـ

4- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية في علم التفسير: للإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن محمد الشوكاني, توفي عام 1250هـ

5- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للعلامة الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي المتوفى سنة 1393هـ

6- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : للشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي المتوفى سنة 1376هـ

المحاضرة الثّانية عشر: التّفسير بالمأثور والتّفسير بالرّأي

أولا/ التّفسير بالمأثور وحكمه:

التّفسير بالمأثور هو الذي يعتمد على صحيح المنقول؛ من تفسير القرآن بالقرآن أو بالسُّنَّة؛ لأنَّها جاءت مبيّنة لكتاب الله أو بما رُوِيَ عن الصحابة؛ لأنَّهم أعلم الناس بكتاب الله أو بما قاله كبار التابعين؛ لأنَّهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة، وقد ورد أنَّ الذين كانوا يتعلّمون القرآن كعثمان بن عفان وغيره إذا تعلّموا عن النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم، ولذلك قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل، جميعاً.

وكان الاختلاف بينهم لا يعدو أنْ يكون اختلافاً في التعبير مع اتحاد المعنى، نحو تفسيرهم (الصراط المستقيم) – الفاتحة 6– فقد قال البعض: هو القرآن، وقال البعض: هو الإسلام، فالقولان متفقان؛ لأنَّ دين الإسلام هو القرآن.

وكتفسيرهم لقول الله تعالى: (ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابف بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) – فاطر: 32–، فقد قال البعض: السابق هو الذي يصلي أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار، وقال البعض: السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط، والظالم لنفسه مانع الزكاة.

أمَّا من حيث الحكم؛ فإنَّ التَّفسير بالمأثور يجب اتّباعه والأخذ به؛ لأنَّه طريق المعرفة الصحيح. وقد ورد عن ابن عباس قوله: التَّفسير على أربعة وجوه: "وجه تعرفه العرب من كلامها، ووجه لا يعذر أحد بجهله، ووجه يعلمه العلماء، ووجه لا يعلمه إلاَّ الله".

فالذي تعرفه العرب يرجع إلى لسانهم ببيان اللُّغة، والذي لا يعذر أحد بجهله ما يتبادر فهم معناه من النصوص التي لا لبس فيها، نحو قوله تعالى: (فاعلم أنّه لا إله إلاّالله) – محمد: 19–.

وأمَّا ما يعلمه العلماء؛ فهو الذي يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرَّأْي من بيان مجمل أو تخصيص عام، وأمَّا الذي لا يعلمه إلاَّ الله؛ فهو المغيبات كحقيقة قيام الساعة، وحقيقة الروح.

نماذج من المفسِّرين بالمأثور:

1/ الإمام الطّبريّ: هو أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد بن كثير بن غالب الطّبريّ، الإمام الجليل والمجتهد المطلق. وُلِدَ بطبرستان سنة 224هـ، ثم رحل في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وطوّف في الأقاليم ثم ألقى عصاه واستقرّ ببغداد، وبها توفي سنة 310هـ.

هذا ويقع تفسيره المسمَّى بـ (جامع البيان في تفسير القرآن) في ثلاثين جزءً.

أمَّا طريقته؛ فتتجلّى في أنَّه إذا أراد أنْ يفسِّر آية من القرآن يقول: القول في تأويل قوله كذا وكذا، ثم يفسِّر آية ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التَّفسير المأثور عنهم في هذه الآية، وإذا كان في الآية قولان أو أكثر فإنَّه يعرض لكل ما قيل فيها ويستشهد على كل قول بما يرويه في ذلك عن الصحابة أو التابعين، ثم هو لا يقتصر على مجرد الرّواية؛ بل يتعرَّض لتوجيه الأقوال ويرجّح بعضها على بعض، ويتعرَّض لناحية الإعراب إذا دعت الحال إلى ذلك، ويستنبط الأحكام التي يمكن أنْ تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار، ويعني بالقراءات، ويرجّح بعضها على بعض، وذلك لمعرفته بجميع القراءات، ثم هو يخاصم بقوة أصحاب التَّفسير بالرَّأْي، ويدعو إلى العلم الراجع إلى الصَّحابة والتَّابعين.

2/ السمرقنديّ: هو أبو الغيث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقنديّ الفقيه الحنفي، المعروف بإمام الهدى، المتوفى سنة 375هـ.

يقع تفسيره المسمَّى بـ (بحر العلوم) في ثلاثة مجلدات، وهو موجود بدار الكتب المصريّة.

أمَّا طريقته؛ فإنَّه يفسِّر القرآن بالمأثور عن السلف، فيسوق الرّوايات عن الصحابة والتابعين، ولكنه لا يذكر إسناده إلى مَنْ يروي عنهم، وإذا ذكر الأقوال والروايات المختلفة لا يعقّب عليها ولا يرجِّح .كما يفعل ابن جرير الطّبريّ ..

وبالجملة فالكتاب قيّم، جمع فيه صاحبه بين التَّفسير بالرّواية والتَّفسير بالدّراية، وغلب الجانب النقليّ فيه على الجانب العقليّ، ومن هنا عُدّ من كتب التَّفسير بالمأثور.

3/ الثعلبيّ: هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبيّ النيسابوريّ، المقرئ المفسِّر، كان حافظاً واعظاً، رأساً في التَّفسير والعربيّة، متين الدّيانة، توفي . رحمه الله تعالى . سنة 427هـ.

وقد سمَّى تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)[1].

تحدَّث المؤلّف عن منهجه وطريقته فذكر اختلافه على العلماء منذ الصغر، واجتهاده في الاقتباس من علم التفسير الذي هو أساس الدِّين ورأس العلوم الشَّرعيّة، ومواصلته ظلام الليل بضوء الصباح، بعزم أكيد وجهد جهيد، حتى رزقه ما عرف به الحقّ من الباطل، والمفضول من الفاضل، والحديث من القديم، والبدعة من السُّنَّة، والحُجَّة من الشُّبهة.

وظهر له أنَّ المصنفين في التَّفسير فِرَق على طُرق مختلفة، فرقة أهل البدع والأهواء، وفرقة أحسنت التأليف إلاَّ أنَّها خلطت أباطيل المبتدعين بأقوال السلف من الصالحين، وفرقة أقتصر أصحابها على الرواية والنقل دون الدّراية والنقد، وفرقة حذفت الإسناد الذي هو الركن والعماد، وفرقة جرّدت التَّفسير من الأحكام، وبيان الحلال والحرام.

1. انظر: شذرات الذهب، 230/3، ووفيات الأعيان، 37/1-38.

وبعد، فإنَّ الذي يُفهم من كلام المؤلّف أنَّه ملتزم مذهب السلف في التَّفسير بالمأثور. هذا ويوجد التفسير المذكور بمكتبة الأزهر، مخطوطاً غير كامل.

4/ البغويّ: هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء[1]، والبغويّ الفقيه الشافعيّ، المحدّث المفسِّر، الملقب بـ "محي السُّنَّة" و"ركن الدِّين"، المتوفى سنة 516هـ.

وتفسيره هذا متوسط، سمَّاه (معالم التّنزيل) نقل فيه عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وكان البغويّ سالكاً سبيل السلف. صنَّف في تفسير كلام الله، وأوضح المشكلات في قول النبي ﷺ، وروى الحديث واعتنى بدراسته، وصنَّف كتباً كثيرة، فمن تصانيفه: "شرح السُّنَّة في الحديث"، و"المصابيح في الحديث"، و"الجمع بين الصحيحين"، و"التهذيب في الفقه"، وقد بورك له في تصانيفه، ورُزِق فيها القبول، لحسن نيته[2].

5/ ابن عطية الأندلسيّ: هو أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسيّ المغربيّ الغرناطيّ، وُلِدَ بالأندلس سنة 481هـ، وتوفى سنة 546هـ، وقد خلّف من المؤلفات كتاب التَّفسير المسمَّى بـ (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، وغيره من المؤلفات المفيدة.

إنَّ تفسير ابن عطية تفسير له قيمته العالية بين كتب التَّفسير، وعند جميع المفسِّرين، وذلك راجع إلى أنَّ مؤلّفه أضفى عليه من روحه العلميّة الفياضة ما أكسبه دقة ورواجاً وقَبولاً، وقد لخّصه مؤلّفه من كتب التَّفسير كلها، وتحرّى ما كان أقرب إلى الصحة منها، ووضع الكلّ في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس[3].

إنَّ تفسير ابن عطية يقع في عشرة مجلدات كبار.

أمَّا منهج صاحبه؛ فإنَّه يذكر الآية، ثم يفسِّرها بعبارة عذبة سهلة، ويورد من التَّفسير بالمأثور ويختار منه في غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطّبريّ، ويناقش المنقول عنه أحياناً، وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربيّ، كثير الاحتكام إلى اللُّغة العربيّة، والاهتمام بالصناعة النّحويّة، كما أنَّه يتعرّض كثيراً للقراءات.

يقول ابن تيمية: "تفسير ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشريّ، وأوضح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع وإنْ اشتمل على بعضها"[4].

---

[1] الفراء: نسبة إلى عمل الفراء وبيعها، والبغويّ نسبة إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها: بغ، وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل.

[2] انظر: طبقات المفسرين للسيوطيّ، 13/1، والطبقات الكبرى لابن السبكي، 214/1.

[3] مقدمة ابن خلدون، ص 491.

[4] فتاوى ابن تيمية، 194/2.

6/ ابن كثير: هو الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير البصريّ ثم الدمشقيّ، الفقيه الشافعيّ، قَدِمَ دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه. قال عنه الداودي في "طبقات المفسِّرين": "كان قدوة العلماء والحُفَّاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ"[1].

كان مولده سنة 700هـ أو بعدها بقليل، وتوفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة، ودُفِنَ بمقبرة الصوفيّة عند شيخه ابن تيمية.

يُعَدُّ تفسير ابن كثير المسمَّى بـ (تفسير القرآن العظيم) من أشهر ما دُوِّنَ في التَّفسير المأثور، ويأتي في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير.

يمتاز ابن كثير في طريقته بأنَّه يذكر الآية ثم يفسّرها بعبارة سهلة موجزة، وإنْ أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى ينتهي المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التَّفسير الذي يُسمونه (تفسير القرآن بالقرآن)، ثم بعد أنْ يفرغ من هذا كلّه يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلّق بالآية، ويبيّن ما يُحتج به وما لا يُحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومَنْ يليهم من علماء السلف.

7/ الثعالبيّ: هو أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبيّ الجزائريّ المغربيّ المالكيّ، الإمام الحُجَّة العامل، توفي سنة 876هـ[2].

يقول الثعالبيّ رحمه الله متحدّثاً عن تفسيره المسمَّى (الجواهر الحسان في تفسير القرآن): "فإني قد جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أنْ يُقِرّ به عيني وعينك في الدارين، فقد ضمّنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأُمَّة".

وجملة القول فإنَّ تفسير الثعالبيّ جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المخلّ، والاستطراد المملّ، وهو عبارة عن مختصر لتفسير ابن عطية مع زيادة نقول من السابقين من المفسِّرين، وهو مطبوع في الجزائر في أربعة أجزاء.

---

[1] طبقات المفسرين: الداودي، ص 327.

[2] الضوء اللامع، 152/4.

8/ السيوطيّ: هو الحافظ جلال الدّين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطيّ الشافعيّ، صاحب المؤلّفات النافعة، وُلِدَ في رجب سنة 849 هـ، وتوفي في سحر ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى 911هـ[1].

إنَّ السيوطيّ اختصر كتابه المسمَّى بـ (الدُّر المنثور في التَّفسير بالمأثور) من كتابه (ترجمان القرآن) الذي ألَّفه في وقت سابق، وضمّنه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، ثم عاد فحذف الأسانيد في الدُّر المنثور مخافة الملل، وكلّ ما في الكتاب سرد الروايات عن السلف في التَّفسير بدون أنْ يعقّب عليها، فلا يعدّل، ولا يخرّج، ولا يضعّف، ولا يصحّح، فهو كتاب جامع فقط لِمَا يروى عن السلف في التَّفسير أخذه السيوطيّ من البخاريّ، ومسلم، والنسائيّ، والترمذيّ، وأحمد، وأبي داود، وابن جرير، وغيرهم مَمَّنْ تقدّمه. فالكتاب يحتاج إلى تصفية حتى يتميّز غثّه من سمينه، وهو مطبوع في ستة مجلدات.

ثانيا/ التفسير بالرأي وحكمه:

مفهوم الرأي:

الرأي: مصدر رأى رأياً. مهموز، ويُجمع على آراء وأرءاءٍ.

والرأي: التفكّرُ في مبادئ الأمور، ونظر عواقبها، وعلم ما تؤول إليه من الخطأ والصواب[2].

والتفسير بالرأي: أن يُعْمِلَ المفسر عقله في فَهْمِ القرآن، والاستنباط منه، مستخدماً آلات الاجتهاد. ويَرِدُ للرأي مصطلحاتٌ مرادفةٌ في التفسير، وهي:

التفسير العقلي، والتفسير الاجتهادي.

ومصدر الرأي: العقلُ، ولذا جُعِلَ التفسيرُ العقليُ مرادفاً للتفسير بالرأي.

والقول بالرأي: اجتهادٌ من القائل به، ولذا جُعِلَ التفسيرُ بالاجتهادِ مرادفاً للتفسير بالرأي.

ونتيجة الرأي: استنباط حكم أو فائدةٍ، ولذا فإن استنباطات المفسرين من قَبِيلِ القول بالرأي.

أَنْوَاعُ الرّأي وموقف السلف منها: يحمل مصطلح (الرأي) حساسية خاصة، تجعل بعضهم يقف منه موقف المتردِّد؛ ذلك أنه ورد عن السلف، آثارٌ في ذمّه.

بَيْدَ أنّ المستقرئ ما ورد عنهم في هذا الباب (أي: الرأي) يجد إعمالاً منهم للرأي، فما موقف السلف في ذلك؟ لنعرض بعض أقوالهم في ذلك، ثمّ نتبيّن موقفهم منه.

أقوالٌ في ذمّ الرأي:

1- ورد عن فاروق الأمة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قوله: "اتقوا الرأي في دينكم"[3].

---

[1] شذرات الذهب، 8/51-55.

[2] الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، 1/63.

[3] المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، 190، وانظر، ص 192، الأثر رقم 217.

وقال: "إياكم وأصحاب الرأي؛ فإنهم أعداء السنن. أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا برأيهم، فضلّوا وأضلوا"[1] .

2- وورد عن الحسن البصري (ت: 110هـ) قوله: "اتهموا أهواءكم ورأيكم على دين الله، وانتصحوا كتاب الله على أنفسكم ودينكم"[2] .

أقوالٌ في إعمالِ الرأي:

ورد عن عمر بن الخطاب والحسن البصري – اللذين نقلت قولاً لهما بذمِّ الرأي- ما يدلّ على إجازتهما إعمال الرأي، وهذه الأقوال:

1- أما ما ورد عن عمر فقوله لشريح – لما بعثه على قضاء الكوفة- : "انظر ما تبين لك في كتاب الله؛ فلا تسأل عنه أحداً، وما لم يتبيّن لك في كتاب الله، فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما لم يتبيّن لك فيه سنة، فاجتهد رأيك"[3] .

2- أمّا ما ورد عن الحسن، فإن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أريت ما يفتى به الناس، أشيءٌ سمعته أم برأيك؟ فقال الحسن: "ما كل ما يفتى به الناس سمعناه، ولكنّ رَأَينا لهم خيرٌ من رأيهم لأنفسهم)[4].

هذان عَلَمان من أعلام السلف ورد عنهما قولان مختلفان في الظاهر، غير أنك إذا تدبّرت قولهم، تبيّن لك أن الرأي عندهم نوعان:

- رأي مذموم، وهو الذي وقع عليه نهيهم.
- ورأي محمود، وهو الذي عليه عملهم.

وإذا لم تَقُلْ بهذا أوقعت التناقض في أقوالهم، كما قال ابن عبد البَرِّ (ت: 463هـ) لما ذكر من حُفِظ عنه أنه قال وأفتى مجتهداً: "ومن أهل البصرة: الحسن وابن سيرين، وقد جاء – عنهما وعن الشعبي – ذمّ القياس، ومعناه عندنا قياسٌ على غيرِ أصلٍ؛ لئلا يتناقض ما جاء عنهم"[5] . والقياس: نوع من الرأي؛ كما سيأتي.

العلوم التي يدخلها الرأي:

يدخل الرأي في كثير من العلوم الدينية، غير أنه يبرز في ثلاثة علوم، وهي: علم التوحيد، وعلم الفقه، وعلم التفسير.

أما علم التوحيد، فيدخله الرأي المذموم، ويسمى الرأي فيه: (هوىً وبدعة). ولذا تجد في كثير من كتب السلف مصطلح: (أهل الأهواء والبدع)، وهم الذين قالوا برأيهم في ذات الله سبحانه.

وأما علم الفقه، فيدخله الرأيان: المحمود والمذموم، ويسمى الرأي فيه: (قياساً)، كما يسمى رأياً، ولذا تجد بعض عباراتٍ للسلف تنهى عن القياس أو الرأي في فروع الأحكام، والمراد به القياس والرأي المذموم.

---

[1] المدخل إلى السنن الكبرى، 191، وانظر قولاً لمسروق في جامع بيان العلم، 168/2، وقولاً للزهري، 169/2.

[2] المدخل إلى السنن الكبرى، 196.

[3] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، 71/2، وانظر، ص 74.

[4] جامع بيان العلم، 75/2.

[5] جامع بيان العلم، 77/2، وانظر كلام ابن بطال في هذا الموضوع في فتح الباري، 301/13.

وأما علم التفسير، فيدخله الرأيان: المحمود والمذموم، ويسمى فيه: (رأياً)، ولم يرد له مرادفٌ عند السلف، وإنما ورد مؤخراً مصطلح: (التفسير العقلي).

وبهذا يظهر أن ما ورد من نهي السلف عن الرأي فإنه يلحق أهل الأهواء والبدع، وأهل القياس الفاسد، والرأي المذموم؛ إذ ليس كلّ قياسٍ أو رأيٍ فاسداً أو مذموماً.

حُكْمُ القَوْلِ بالرّأي:

سيكون الحديث في حكم الرأي المتعلق بالعلوم الشرعية عموماً – وإن كان يغلب عليه الرأي والقياس في الأحكام – وقد سبق أن الرأي نوعان: رأي مذموم، ورأي محمود.

أولاً/ الرّأيُ المَذْمُومُ:

ورد النهي عن هذا النوع في كتاب الله تعالى وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، كما ورد نهي السلف عنه.

وحَدّ الرأي المذموم: أن يكون قولاً بغير علمٍ وهو نوعان: علم فاسد ينشأ عن الهوى، أو علم غير تام وينشأ عن الجهل.

وهذا الحدّ مستنبط من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

أمّا من كتاب الله فما يلي:

1- قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) -الأعراف: 33-.

2- وقوله تعالى: (وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) -البقرة: 168، 169-.

3- وقوله تعالى: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) -الإسراء: 36-.

في هذه الآيات نهي وتشنيع على القول على الله بغير علم؛ ففي الآية الأولى جعله من المحرّمات، وفي الآية الثانية جعله من اتباع خطوات الشيطان، وفي الآية الثالثة جعله منهياً عنه. وفي هذا كلِّه دليلٌ على عدم جواز القول على الله بغير علم.

وأما في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم:

فإن من أصرح ما ورد فيها قوله: "إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء، فيقبض العلم، حتى إذا لم يترك عالماً، اتخذ الناس رؤساء جُهّالاً، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا" رواه البخاري في كتاب الاعتصام، وترجم له بقوله: "بابُ ما يذكر من ذمّ الرأي وتكلف القياس"[1] .

وأمّا ما ورد عن السلف، فمنها:

1- ما سبق ذكره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والحسن البصري رحمه الله من نهيهما عن الرأي.

[1] انظر الحديث في فتح الباري، (295/13).

2- عن مسروق (ت: 63هـ) قال: "من يرغب برأيه عن أمر الله يضلّ"[1] .

3- وقال الزهري (ت: 124هـ): "إياكم وأصحاب الرأي، أعيتهم الأحاديث أن يعوها"[2].

وممن نُقِل عنه ذم الرأي أو القياس ابن مسعود (ت: 33هـ) من الصحابة، وابن سيرين (ت: 110هـ) من تابعي الكوفة، وعامر الشعبي (ت: 104هـ) من تابعي الكوفة، وغيرهم[3] .

صور الرأي المذموم:

ذكر العلماء صوراً للرأي المذموم، ويطغى على هذه الصّوَر الجانب الفقهي؛ لكثرة حاجة الناس له، حيث يتعلّق بحياتهم ومعاملاتهم. ومن هذه الصور ما يلي:

1- القياس على غير أصل[4] .

2- قياس الفروع على الفروع[5] .

3- الاشتغال بالمعضلات[6].

4- الحكم على ما لم يقع من النّوازل[7].

5- ترك النظر في السنن اقتصاراً على الرأي، والإكثار منه[8].

6- من عارض النصّ بالرأي، وتكلف لردِّ النص بالتأويل[9].

7- ضُروب البدع العقدية المخالفة للسنن[10].

هذه بعض الصور التي ذكرها العلماء في الرأي المذموم، وسيأتي صور أخرى تخصّ التفسير.

ثانياً/ الرأي المحمود:

هذا النوع من الرأي هو الذي عَمِلَ به الصحابة والتابعون ومن بعدهم من علماء الأمّة، وحدّه أن يكون مستنداً إلى علمٍ[11] ، وما كان كذلك فإنه خارج عن معنى الذمّ الذي ذكره السلف في الرأي.

ومن أدلة جواز إعمال الرأي المحمود ما يلي:

1- مفهوم الآيات السابقة والحديث المذكور في أدلة النهي عن الرأي المذموم؛ لأنها كلها تدل على أن القول بغير علم

---

[1] جامع بيان العلم 168/2.

[2] جامع بيان العلم 169/2.

[3] انظر: جامع بيان العلم، 77/2، وفتح الباري، 310/13.

[4] جامع بيان العلم، 70/2، 71، 77.

[5] جامع بيان العلم، 170/2.

[6] جامع بيان العلم، 170/2.

[7] جامع بيان العلم، 170/2.

[8] الاعتصام للشاطبي، 104/1.

[9] فتح الباري، 303/13.

[10] جامع بيان العلم، 169/2.

[11] العلم يقابل الجهل المذكور في حدِّ الرأي المذموم، أما الهوى، فيقابله الورع؛ لأنّ الوَرَعَ يقي صاحبه من مخالفة الحقِّ.

لا يجوز، ويفهم من ذلك أن القول بعلم يجوز.

2- فعل السلف وأقوالهم، ومنها:

أ – عن عبد الرحمن بن يزيد قال: أكثرَ الناس على عبد الله (يعني: ابن مسعود) يسألونه، فقال: أيها الناس إنه قد أتى علينا زمان نقضي ولسنا هناك، فمن ابتلي بقضاءٍ بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله، فإن أتاه ما ليس في كتاب الله – ولم يَقُلْهُ نبيّه – فليقض بما قضى به الصالحون، فإن أتاه أمر لم يقض به الصالحون – وليس في كتاب الله، ولم يقل فيه نبيّه – فليجتهد رأيه، ولا يقول: أخاف وأرى، فإن الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبَيْنَ ذلك أمورٌ مشتبهات، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم"[1].

قال ابن عبد البر (ت: 463هـ) معلقاً على هذا القول: "هذا يوضح لك أن الاجتهاد لا يكون إلا على أصولٍ يضاف إليها التحليل والتحريم، وأنه لا يجتهد إلا عالم بها، ومن أشكل عليه شيءٌ لزمه الوقوف، ولم يَجُز له أن يُحيلَ على الله قولاً في دينه لا نظير له من أصلٍ ولا هو في معنى أصلٍ. وهذا لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديماً وحديثاً؛ فتدبّره"[2].

ب – وعن الشعبي (ت: 104هـ) قال: لما بعث عمرُ شريحاً على قضاء الكوفة قال له: انظر ما تبيّن لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً، وما لم يتبيّن لك في كتاب الله فاتّبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد رأيك"[3].

ج – وعن مسروق (ت: 63هـ) قال: سألت أُبَيّ بن كعب عن شيءٍ؛ فقال: أكان هذا؟ قلت: لا. قال: فأجمّنا (أي: اتركنا أو أرحنا) حتى يكون؛ فإذا كان اجتهدنا لك رأينا"[4].

الرّأيُ فِي التّفْسِير:

اعلم أن ما سبق كان مقدمة للدخول في الموضوع الأساس، وهو التفسير بالرأي، وكان لا بدّ لهذا البحث من هذا المدخل، وإن كان الموضوع متشابكاً يصعب تفكيك بعضه عن بعض، ولذا سأحرص على عدم تكرار ما سبق، وسأكتفي بالإحالة عليه، إن احتاج الأمر إلى ذلك.

وسأطرح في هذا ثلاثة موضوعات:

الأول: موقف السلف من القول في التفسير.

الثاني: أنواع الرأي في التفسير.

الثالث: التفسير بين المأثور والرأي.

وسيتخلّل هذه الموضوعات مسائل عِدّة؛ كشروط القول بالرأي، وأدلة جواز الرأي في التفسير، وصور الرأي المذموم.... إلخ، وإليك الآن تفصيل هذه الموضوعات:

---

[1] جامع بيان العلم، 70/2، 71.

[2] جامع بيان العلم، 71/2.

[3] جامع بيان العلم، 71/2.

[4] جامع بيان العلم، 72/2، وانظر غيرها من الآثار، ص 69- 79.

أولاً: موقف السلف من القول في التفسير:

التفسير بيان لمراد الله سبحانه بكلامه، ولما كان كذلك، فإن المتصدي للتفسير عرضة لأن يقول: معنى قول الله كذا. ثم قد يكون الأمر بخلاف ما قال. ولذا قال مسروق بن الأجدع (ت: 63هـ): "اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية عن الله عز وجل".

وقد اتخذ هذا العلم طابعاً خاصاً من حيث توقّي بعض السلف وتحرجهم من القول في التفسير، حتى كان بعضهم إذا سئل عن الحلال والحرام أفتى، فإذا سئل عن آية من كتاب الله سكت كأن لم يسمع.

ومن هنا يمكن القول: إن السلف – من حيث التصدي للتفسير – فريقان: فريق تكلّم في التفسير واجتهد فيه رأيه، وفريق تورّع فقلّ أو نَدُرَ عنه القول في التفسير.

وممن تكلم في التفسير ونُقِلَ رأيه فيه عمر بن الخطاب (ت: 23هـ) وعلي بن أبي طالب (ت: 40هـ) وابن مسعود (ت: 33هـ) وابن عباس (ت: 67هـ) وغيرهم من الصحابة.

ومن التابعين وأتباعهم: مجاهد بن جبر (ت: 103هـ) وسعيد بن جبير (ت: 95هـ) وعكرمة مولى ابن عباس (ت: 107هـ) والحسن البصري (ت:110هـ) وقتادة (ت: 117هـ) وأبو العالية (ت: 93هـ) وزيد بن أسلم (ت: 136هـ) وإبراهيم النخعي (ت:96هـ) ومحمد بن كعب القرظي (ت:117هـ) وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت:182هـ) وعبدالملك بن جريج (ت:150هـ) ومقاتل بن سليمان (ت:150هـ) ومقاتل بن حيان (ت:150هـ) وإسماعيل السدي (ت:127هـ) والضحاك بن مزاحم (ت:105هـ) ويحي بن سلام (ت:200هـ)، وغيرهم.

وأما من تورّع في التفسير فجمعٌ من التابعين[1] من أهل المدينة والكوفة.

أما أهل المدينة، فقال عنهم عبيد الله بن عمر: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليغلظون القول في التفسير؛ منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع[2].

وقال يزيد بن أبي يزيد: "كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام – وكان أعلم الناس – فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع"[3].

وقال هشام بن عروة بن الزبير: "ما سمعت أبي يتأوّل آية من كتاب الله قطّ"[4].

وأمّا أهل الكوفة فقد أسند إبراهيم النخعي إليهم قَولَه: "كان أصحابنا – يعني: علماء الكوفة– يتّقون التفسير ويهابونه"[5].

هذا.. ولقد سلك مسلك الحذر وبالغ فيه إمام اللغة الأصمعي (ت: 215هـ)، حيث نقل عنه أنه كان يتوقّى تبيين

---

[1] لم أجد نقلاً عن أحد من الصحابة يدل على أن مذهبه كهذا المذهب الذي برز عند التابعين.

[2] تفسير الطبري (ط شاكر)، 85/1.

[3] تفسير الطبري (ط شاكر)، 86/1.

[4] فضائل القرآن لأبي عبيد، 229.

[5] فضائل القرآن لأبي عبيد، 229.

معنى لفظة وردت في القرآن[1].

فما ورد عن هؤلاء الكرام من التوقي في التفسير إنما كان تورّعاً منهم، وخشية ألاّ يصيبوا في القول.

ثانياً: أنواع الرأي في التفسير:

الرأي في التفسير نوعان: محمود، ومذموم.

النوع الأول: الرأي المحمود.

إنما يحمد الرأي إذا كان مستنداً إلى علم يقي صاحبه الوقوع في الخطأ.

ويمكن استنباط أدلةٍ تدلّ على جواز القول بالرأي المحمود.

ومن هذه الأدلّة ما يلي:

1- الآيات الآمرة بالتدبّر:

وردت عدّة آيات تحثّ على التدبّر؛ كقوله تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) -محمد: 24-، وقوله: (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) -ص: 29-. وغيرها من الآيات.

وفي حثِّ الله على التدبر ما يدلّ على أن علينا معرفة تأويل ما لم يُحجب عنا تأويله؛ لأنه محالٌ أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له: اعتبر بما لا فهم لك به[2].

والتدبّر: التفكّر والتأمّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلامٍ قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبِّر تدبّراً انكشف له معانٍ لم تكن له بادئ النظر[3].

والتدبّر: عملية عقلية يجريها المتدبر من أجل فهم معاني الخطاب القرآني ومراداته، ولا شك أن ما يظهر له من الفهم إنما هو اجتهاده الذي بلغه، ورأيه الذي وصل إليه.

2- إقرارُ الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهادَ الصحابة في التفسير: لا يبعد أن يقال: إن تفسير القرآن بالرأي نشأ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك وقائع يمكن استنباط هذه المسألة منها، ومن هذه الوقائع ما يلي:

أ – قال عمرو بن العاص: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذات السّلاسِلِ، فاحتلمت في ليلة باردةٍ شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمّمت به، ثمّ صليت بأصحابي صلاة الصبح، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له، فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جُنُبٌ؟ قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أَهْلَكَ، وذكرتُ قول الله:(وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ) -النساء: 29- فتيمّمْتُ، ثم صليت، فضحك ولم يقل شيئاً"[4].

في هذا الأثر ترى أن عَمْراً اجتهد رأيه في فهم هذه الآية، وطبّقها على نفسه، فصلى بالقوم بعد التيمم، وهو جنب، ولم ينكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاجتهاد والرأي.

---

[1] انظر في ذلك: الكامل للمبرد (تحقيق: الدالي) 928/2، 4135، تهذيب اللغة 14/1، إعجاز القرآن للخطابي (تحقيق: عبد الله الصديق) 42.

[2] انظر: تفسير الطبري (ط شاكر)، 82/1- 83.

[3] التحرير والتنوير، 252/23.

[4] مسند الإمام أحمد، 203/4، 204، وأبو داود برقم 335، وانظر تفسير ابن كثير، 480/2، والدر المنثور، 497/2.

ب – وفي حديث ابن مسعود، لما نزلت آية: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ) –الأنعام: 82– قلنا يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه، فقال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح (يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) –لقمان: 13–"[1] ، ترى أن الصحابة فهموا الآية على العموم، وما كان ذلك إلا رأياً واجتهاداً منهم في الفهم، فلما استشكلوا ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرشدهم إلى المعنى المراد، ولم ينههم عن تفهّم القرآن والقول فيه بما فهموه. كما يدل على أنهم إذا لم يستشكلوا شيئاً لم يحتاجوا إلى سؤال الرسول.

3– دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس: دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس بقوله: "اللهم فقِّهه في الدين، وعلِّمه التأويل" وفي إحدى روايات البخاري: "اللّهم علّمه الكتاب"[2].

والتأويل: التفسير، ولو كان المراد المسموع من التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان لابن عباس مَزِيّةٌ بهذا الدعاء؛ لأنه يشاركه فيه غيره[3] ، وهذا يدلّ على أن التأويل المراد: الفهم في القرآن[4] ، وهذا الفهم إنما هو رأيٌ لصاحبه.

4– عمل الصحابة: مما يدل على أن الصحابة قالوا بالرأي وعملوا به ما ورد عنهم من اختلافٍ في تفسير القرآن؛ إذ لو كان التفسير مسموعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع بينهم هذا الاختلاف.

ومما ورد عنهم نصاً في ذلك قولُ صدِّيق الأمة أبي بكر رضي الله عنه لما سئل عن الكلالة، قال: "أقول فيها برأيي؛ فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان"[5].

وكذا ما ورد عن علي رضي الله عنه لما سئل: هل عندكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيءٌ سوى القرآن؟ قال: "لا، والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة، إلا أن يُعطِي الله عبداً فهماً في كتابه"[6].

والفهم إما هو رأي يتولّد للمرء عند تفهّم القرآن؛ ولذا يختلف في معنى الآية فهم فلان عن غيره.

شروط الرأي المحمود في التفسير:

متى يكون الرأي محموداً؟

سبق في بيان حدِّ الرأي المحمود أنه ما كان قولاً مستنداً إلى علمٍ؛ فإن كان كذلك فهو رأيٌ جائز، وما خرج عن ذلك فهو مذموم.

ولكن.. هل لهذا العلم حدّ يُعْرَفُ به، بحيث يمكن تمييزه والتعويل عليه في الحكم على أيِّ رأيٍ في التفسير؟

لقد اجتهد بعض المتأخرين في بيان جملة العلوم التي يحتاجها من يفسر برأيه حتى يخرج عن كونه رأياً مذموماً.

فالراغب الأصفهاني (ت: القرن الخامس) جعلها عشرة علوم، وهي: علم اللغة، والاشتقاق، والنحو، والقراءات،

---

[1] أخرجه البخاري في أكثر من موضع، كتاب الإيمان ح/32، أحاديث الأنبياء/3360، 3428.

[2] انظر: فتح الباري، 204/1، وانظر شرح ابن حجر، 204/1، 205.

[3] انظر: تفسير القرطبي، 33/1، وجامع الأصول، 4/2.

[4] انظر: فتح الباري، 205/1.

[5] انظر قوله في تفسير الطبري، (ط شاكر)، 53/8، 54.

[6] رواه البخاري، (فتح الباري، 246/1) وغيرها من المواضع التي ذكرها لهذا الحديث.

والسّيَر، والحديث، وأصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة[1].

وجعلها شمس الدين الأصفهاني (ت: 749هـ) خمسة عشر علماً، وهي: علم اللغة، والاشتقاق، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءات، وأسباب النزول، والآثار والأخبار، والسنن، وأصول الفقه، والفقه والأخلاق، والنظر والكلام، والموهبة[2].

وقد ذكر الأصفهانيان أن من تكاملت فيه هذه العلوم خرج عن كونه مفسراً للقرآن برأيه (أي: المذموم).

وقد نبّه الراغب على أن "من نقص عن بعض ما ليس بواجبٍ معرفته في تفسير القرآن، وأحسّ من نفسه في ذلك بنقصه، واستعان بأربابه، واقتبس منهم، واستضاء بأقوالهم، لم يكن – إن شاء الله – من المفسرين برأيهم"[3] . (أي: المذموم).

وفيما يظهر – والله أعلم – أن في ذكر هذه العلوم تكثّراً لا دليل عليه، مع ما على بعضها من ملاحظة؛ كعلم الكلام.

إن تكامل هذه العلوم أشبه بأن يكون شرطاً في المجتهد المطلق لا في المفسر؛ إذ متى يبلغ مفسر تكامل هذه العلوم فيه؟

ولو طُبق هذا الرأي في العلوم المذكورة لخرج كثير من المفسرين من زمرة العالمين بالتفسير، ولذا تحرّز الراغب بذكر حال من نقص علمه ببعض هذه العلوم، وبهذا يكون ما ذكره بياناً لكمال الأدوات التي يحسن بالمفسر أن يتقنها، وإن لم يحصل له ذلك فإنه يعمد إلى النقل فيما لا يتفق له.

ويظهر أن أغلب المفسرين على هذا السبيل، ولذا ترى الواحد منهم يُبرِز في تفسيره العلم الذي له به عناية؛ فإن كان فقيهاً – كالقرطبي، برز عنده تفسير آيات الأحكام.

وإن كان نحوياً – كأبي حيان – برز عنده علم النحو في تفسيره للقرآن.

وإن كان بلاغياً أديباً – كالزمخشري – برز عنده علم البلاغة في تفسيره للقرآن،... وهكذا.

هذا.. ويمكن القول بأن النظر في هذا الموضوع يلزم منه معرفة ما يمكن إعمال الرأي فيه، مما لا يمكن، ثم تحديد مفهوم التفسير لمعرفة العلوم التي يحتاجها المفسر برأيه.

أما التفسير فنوعان: ما جهته النقل، وما جهته الاستدلال.

والأول: لا مجال للرأي فيه، والثاني: هو مجال الرأي.

ومن التفسير الذي جهته النقل: أسباب النزول، وقصص الآي، والمغيبات، ويدخل فيه كلّ ما لا يتطرّق إليه الاحتمال؛ كأن يكون للفظ معنى واحدٌ في لغة العرب.

وأما التفسير من جهة الاستدلال فكل ما تطرّق إليه الاحتمال؛ لأن توجيه الخطاب إلى أحد المحتملات دون غيره إنما

---

[1] انظر: مقدمة جامع التفاسير، 93-97.

[2] انظر: حاشية 7، ص 148، من كتاب التيسير في قواعد علم التفسير للكافيجي، وقد استفاد شمس الدين من الراغب؛ كما يظهر بالموازنة بين قوليهما، وقد نقل عن شمس الدين كلّ من: الكافيجي في التيسير 145-148، والسيوطي في الإتقان، 185/4.

[3] انظر: مقدمة جامع التفاسير للراغب (تحقيق: أحمد فرحات) 96، وعنه نقل الكافيجي في التيسير، 148.

هو برأيٍ من المفسر، وبهذا برز الاختلاف في التفسير.

وأما مفهوم التفسير؛ فهو بيان المراد من كلام الله سبحانه وما يمكن أن يحصل به البيان فهو تفسيرٌ.

وبهذا يظهر أن كثيراً من العلوم التي ذكرها الأصفهانيان لا يلزمان في التفسير إلا بقدر ما يحصل به البيان، وما عدا ذلك فهو توسّع في التفسير، بل قد يكون في بعض الأحيان به خروجٌ عن معنى التفسير، كما حصل للرازي (ت: 604هـ) في تفسيره، ولابن عرفه (ت: 803هـ) في إملاءاته في التفسير.

ثم اعلم أن هذه التوسعات إنما حصلت بعد جيل الصحابة والتابعين – في الغالب – وإنما كان ذلك بظهور أقسام العلوم – من نحوٍ وفقه وتوحيد وغيرها – وتَشَكّلها؛ مما كان له أكبر الأثر في توسيع دائرة التفسير، حتى صار كل عالمٍ بفنٍّ– إذا شارك في كتابة علم التفسير – يصبغ تفسيره بفنِّه الذي برّز فيه.

ويمكن تقسيم العلوم التي يحتاجها من فسر برأيه إلى نظرين:

الأول: نظرٌ في علوم الآية:

ويكون ذلك بالنظر إلى ما في الآية من علوم؛ كالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والخاص والعام، ومفردات اللغة، وأساليبها، وهكذا.

وإنما يقال ذلك؛ لأنه ليس يلزم في كل آية بحث هذه العلوم؛ إذ قد توجد في آية، وتتخلّف عن آيات.

– وإذا أمعنت النظر وجدت أن علم اللغة هو من أهم العلوم التي يجب على المفسر معرفتها، ذلك أنه لا تخلو آية من مبحثٍ لغوي.

ومن الآثار التي وردت عن السلف في بيان أهمية اللغة، ما يلي:

1– عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره"[1].

2– وروي عن مجاهد (ت: 104هـ) أنه قال: "لا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[2].

3– وعن يحي بن سليمان قال: سمعت مالك بن أنس (ت: 179هـ) يقول: "لا أوتى برجلٍ يفسر كتاب الله غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالاً"[3].

ولو قرأت في تفسير السلف لوجدت أثر اللغة في التفسير عندهم، ومن أوضح ذلك استشهادهم بأشعار العرب:

ومن أمثلة أهمية معرفة اللغة لمن فسر برأيه ما يلي:

أ – في تفسير قوله تعالى: (وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ) –التوبة: 47– قال الأزهري (ت: 370هـ): "قول الليث: الوضع: سيرٌ دونٌ. ليس بصحيح. والوضع: هو العَدْوُ. واعتبر الليث اللفظ ولم يعرف كلام العرب فيه"[4].

---

[1] تفسير الطبري (ط: شاكر)، 75/1.

[2] انظر: البرهان للزركشي، 92/1.

[3] ذم الكلام للهروي (تحقيق: سميح دغيم)، وشعب الإيمان للبيهقي، 232/5.

[4] تهذيب اللغة، 73/3.

ب – قال الأزهري (ت:370هـ): "... عن أبي حاتم (ت: 255هـ) في قوله: (فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) –الأنبياء: 87– أي: لن نضيّق عليه. قال – أي: أبو حاتم –: ولم يدر الأخفش ما معنى (نَقْدِرَ)، وذهب إلى موضع القُدرة، إلى معنى: فظنّ أن يفوتنا، ولم يعلم كلام العرب حتى قال: إن بعض المفسرين قال: أراد الاستفهام: أفظنّ أن لن نقدر عليه؟ ولو علم أن معنى نقدر: نضيّق، لم يَخْبِط هذا الخبط، ولم يكن عالماً بكلام العرب، وكان عالماً بقياس النحو"[1].

– ومن العلوم التي يلزم معرفتها الناسخ والمنسوخ وما شابهه من المباحث؛ كالمطلق والمقيد، والخاص والعام، ومعرفتها لازمة للمفسر بلا شك، ومن الآثار التي يمكن الاعتماد عليها في ذلك ما رواه أبو عبد الرحمن السلمي قال: "انتهى علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رجل يقصّ[2] ، فقال: أعلمتَ الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكتَ وأهلكتَ"[3].

وقد استدل مَنْ كتب في علم الناسخ والمنسوخ في القرآن بهذا الأثر لبيان أهمية هذا العلم. وإذا كان علي رضي الله عنه قد اعترض على القاصِّ؛ فالمفسر من باب أوْلى ينبغي أن ينبّه إلى ذلك، لما في جهل هذا العلم من أثر في عدم فهم التفسير.

– ومن العلوم سبب النزول وقصص الآي؛ ذلك أن معرفة سبب النزول وقصص الآي يفيد في معرفة تفسير الآية. ومن الأمثلة التي تدل على أهمية معرفة هذا الجانب، وأن عدم معرفته يوقع في الخطأ، ما وقع لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت: 210هـ) في تفسير قوله تعالى: (وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ) –الأنفال: 11– حيث قال: "مجازه: يفرغ عليهم الصبر، وينزِّله عليهم، فيثبتون لعدوهم"[4].

وقصد الآية يدلّ على خطأ أبي عبيدة في تفسيره هذا، فلما غفل عن القصة نحى في تفسيره هذا المنحى اللغوي الذي لا تدلّ عليه الآية.

والتثبيت المذكور في الآية حقيقي، وهو أن أقدام المسلمين لا تسوخ في الرمل لما نزل عليه المطر، وبهذا جاء التفسير عن الصحابة الذين شاهدوا النزول، وعن التابعين الذين نقلوا عنهم[5].

– ومنها معرفة السنة النبوية، ويكون ذلك بالرجوع إلى صريح التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما يكون بالرجوع إلى أقواله وأفعاله التي لها أكبر الأثر في فهم القرآن.

ومما يمكن التمثيل به من استعانة المفسر بالسنة النبوية، ما رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ما رأيت أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب على ابن آدم حظّه من الزنى، أدركه ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر..."[6].

---

[1] تهذيب اللغة للأزهري، 20/9.

[2] القُصّاص: قوم جلسوا للوعظ والتذكير، وهم يذكرون آياتٍ وأحاديث يستشهدون بها في أحاديثهم مع الناس.

[3] الناسخ والمنسوخ للنحاس (تحقيق: اللاحم) 410/1، ومما ينبغي التنبّه له أن النسخ عند السلف أوسع من اصطلاح الأصوليين؛ حيث يشمل كل إزالة تكون في الآية.

[4] مجاز القرآن 242/1.

[5] انظر: تفسير الطبري، (ط: الحلبي)، 195/9، 197.

[6] تفسير الطبري (ط: الحلبي) 65/27 66 عند تفسير قوله تعالى: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ) –النجم: 32–.

ثم إن عدم معرفة السنة التي تفسر القرآن قد تجعل المفسر يجنح إلى مصدر آخر؛ فيفسر به لعدم ورود هذا التفسير النبوي إليه.

ومما يمكن أن يُمثّل به هنا ما روي عن السلف في تفسير قوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ) -القلم: 42- فقد فسّر جمع من السلف الساق بالمعنى اللغوي، أي: عن أمر شديد[1] ، ومنهم: ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة[2].

وقد ورد في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاءً وسُمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً"[3].

وهذا الحديث يفسِّرُ الساق الذي جاء في الآية نكرةً لم يُضَفْ، ويبيّن أن المراد بالساق ساق ربنا عزّ وجلّ.

ولو لم يَرِدْ هذا الحديثُ لاعتُمِدَ قول ابن عباس وتلاميذه في تفسير الساق.

وبعد.. فهذه بعض العلوم التي إن جهل المفسر بها فإنه يقع في التأويل الخطأ، ولا يخالفه الصواب في معنى الآية[4].

الثاني: نَظَرٌ في طبقة المفسر:

المفسرون الذين يجب الرجوع إلى أقوالهم، والأخذ بها، وعدم الخروج عنها هم الصحابة والتابعون وأتباعهم. فما جاء عنهم فإنه لازم لمن بعدهم من حيث الجملة ولا يجوز مخالفتهم.

وكان عدم الاعتماد على تفسيرهم من أهم أسباب بروز الرأي المذموم، كما يشير إليه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: 728هـ) بقوله: "وأما النوع الثاني من سببي الخلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حَدَثَتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، فإن التفاسير التي يُذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيءٌ من هاتين الجهتين"[5].

ولما كان لهؤلاء السلف من تقدّمٍ في العلم شهد لهم به كل من جاء بعدهم من العلماء؛ فإن الاعتماد على أقوالهم مدعاة للخروج عن الرأي المذموم، ولذا جعل ابن جرير من شروط المفسر أن لا يكون تأويله وتفسيره خارجاً عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة[6] . ويجب التنبه إلى أن كل من رجع إلى أقوالهم وتخيّر منها، فإنه قائل بالرأي؛ لأن تخيره معتمد على عقله كما فصل ابن جرير الطبري في تفسيره.

النوع الثاني: الرأي المذموم وصوره في التفسير:

الرأي المذموم في التفسير هو القول في القرآن بغير علم، سواءً أكان عن جهلٍ أو قصورٍ في العلم أم كان عن هوى

---

[1] انظر: الطبري (ط: الحلبي) 38/29، حيث ترجم عن من قال بهذا القول بهذه الترجمة.

[2] انظر: تفسير الطبري (ط: الحلبي) 38/29 وما بعدها.

[3] رواه البخاري تحت تفسير قوله تعالى: (يوم يكشف عن ساق)، (فتح الباري 531/8).

[4] هذا الموضوع يحتاج إلى بسطٍ أكبر، وما ذكرته فهو إشارة لا تُغني عن البحث فيه.

[5] مقدمة في أصول التفسير (تحقيق: عدنان زرزور) 79.

[6] انظر: تفسير الطبري (ط: شاكر) 93/1.

يدفع صاحبه إلى مخالفة الحق، وقد سبق بيان ذلك مع أدلة النهي عنه.

ومن صور الرأي المذموم ما يلي:

1- تفسير ما لا يعلمه إلا الله:

وهو أحد أوجه التفسير التي أوردها ابن عباس، ويشتمل على أمرين:

أحدهما: تكييف المغيبات التي استأثر الله بعلمها؛ كتكييف صفاته سبحانه، أو غيرها من المغيبات.

ثانيها: تحديد زمن المغيبات التي ورد ذِكْرُ خروجها؛ كزمن خروج الدابة، أو نزول عيسى، أو غير ذلك.

فهذه الأشياء لا سبيل للبشر إلى معرفتها؛ فمن زعم أنه قادرٌ على ذلك فقد أعظم الفرية على الله.

2- من ناقض التفسير المنقول أو أعرض عنه:

يشمل التفسير المنقول: كل ما نُقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو أصحابه أو التابعين وأتباعهم، فمن أقدم على التفسير دون الرجوع إلى التفسير المنقول فإنه سيقع في الرأي المذموم؛ لأن جُزءاً من التفسير لا يمكن معرفته إلا عن طريق النقل عنهم؛ كأسباب النزول، وقصص الآي، وناسخها... وغيرها.

3- من فسر بمجرد اللغة دون النظر في المصادر الأخرى:

إن التسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وغيرها؛ مُوقِعٌ في الخطأ، فمن لم يُحكّم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من قال برأيه المذموم[1].

واعتماد اللغة فقط دون غيرها من المصادر، هو أحد أسباب الخطأ الذي يقع في التفسير، كما حكى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[2].

4- أن يكون له رأي فيتأول القرآن على وفق رأيه[3]:

ويكثر هذا عند أهل الأهواء والبدع، حيث أنهم يعتقدون الرأي، ثم يبحثون عن دليله، وقد يحرّفون الكلم عن مواضعه ليوافق آراءهم، ولو لم يكن لهؤلاء هذا الاعتقاد والرأي لما فسر القرآن بهذه التفسيرات المنحرفة.

ويقع خطأ أولئك على أقسام:

الأول: الخطأ في الدليل والمدلول: وذلك أن المفسر يستدل لرأيه بدليل، ويكون رأيه الذي استدل له باطلٌ فيستلزم بطلان دلالة الدليل على المستدل له.

ومثال ذلك أن المعتزلة اعتقدوا أن الله سبحانه لا يُرى في الآخرة، وهذا باطل، ثم استدلوا لهذا بقوله تعالى: (لَن تَرَانِي) -الأعراف: 143- فجعلوا (لَن) لتأبيد النفي، وهذا غير صحيح في هذا الموضع.

ومثاله كذلك استدلال بعض المتصوفة على جواز الرقص وهو حرام بقوله تعالى: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) -ص: 42-[4].

---

[1] انظر: تفسير القرطبي 34/1 (بتصرف).

[2] انظر: مقدمة في أصول التفسير، (تحقيق: عدنان زرزور)، ص 81.

[3] انظر: تفسير القرطبي 33/1، ومقدمة في أصول التفسير، ص 81 وما بعدها.

[4] انظر: تفسير القرطبي، 215/15.

فالرّقص حرام، والآية لا تدل عليه لا من قريب ولا من بعيد.

الثاني: الخطأ في الاستدلال لا في المدلول: وفي هذا يكون المدلول بذاته صحيحاً، ولكن حَمْل الآية عليه لا يصح.

ومثاله ما فسر به بعضهم قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ) -البقرة: 249-.

حيث قال: "هذه الآية مَثَلٌ ضربه الله للدنيا، فشبهها الله بالنهر، والشارب منه بالمائل إليها المستكثر منها، والتارك لشربه بالمنحرف عنها والزاهد فيها، والمغترف بيده غرفة بالآخذ منها قدر الحاجة، وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة"[1].

فهذا الكلام من حيث هو في ذاته مجرداً عن الآية كلام صحيح، ولكنّ جَعْلَهُ تفسيراً للآية خطأٌ ظاهرٌ، ولذا قال القرطبي (ت: 671هـ) معلقاً على هذا القول: "ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل، والخروج عن الظاهر، ولكن معناه صحيح من غير هذا"[2].

وبعد.. فهذه بعض صور التفسير بالرأي المذموم. والله أعلم.

التفسير بين الأثر والرأي:

لقد ظهر من خلال الأمثلة الدالة على جواز الرأي أن الرأي قد برز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان قليلاً، ثم اتسع وانتشر أكثر في عهد الصحابة ومَنْ بعدهم.

كما ظهر أن مِن الصحابة والتابعين وأتباعهم مَنْ فسروا القرآن برأيهم، فهل نُسمِّي ما ورد عنهم تفسيراً بالمأثور، وما ورد عن غيرهم تفسيراً بالرأي؟

إن تقسيم التفسير على هذا النحو فيه نظر[3] ، وذلك لأمرين:

الأول: أن أغلب من قسّم هذا التقسيم جعل حكم المأثور وجوب الأخذ به على إطلاقه، مع أن بعضهم يحكي خلاف العلماء في قبول أقوال التابعين، كما ينسى حكم ما اختلفوا فيه: كيف يجب الأخذ به مع وجود الاختلاف بينهم؟

الثاني: أن في ذلك تناسياً للجهد التفسيري الذي قام به السلف، وتجاهلاً لرأيهم في التفسير الذي يُعَدّون أول من بذره وأنتجه.

إن هؤلاء السلف قالوا في القرآن بآرائهم، كما قال المتأخرون بآرائهم، ولكن شتان بين الرأيين؛ فرأي السلف هو المقدّم بلا إشكال.

إن المقابلة بين التفسير بالمأثور "على أنه تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين" والتفسير بالرأي "على أنه ما عدا ذلك" خطأ محضٌ لا دليل عليه من قول السلف أو من العقل.

إن تسمية تفسير السلف تفسيراً بالمأثور باعتبار أن طريق الوصول إليه هو الأثر تسميةٌ لا غبار عليها، وهو بهذا لا

---

[1] تفسير القرطبي، 251/3.

[2] تفسير القرطبي، 251/3.

[3] قد فصلت القول في مصطلح التفسير بالمأثور، انظر مجلة البيان عدد 76.

يقابل التفسير بالرأي، بل التفسير بالرأي ممتزج فيه؛ لأن من تفسيرهم ما هو نقلٌ لا يصح تركه أو إنكاره؛ كأسباب النزول، ومنه ما هو استدلال وقولٌ بالرأي، وكلا هذين عنهما؛ إنما طريقنا إليه هو الأثر.

كتب التفسير بين الرأي والأثر:

بناءً على ما وقع من مقابلة التفسير المأثور بالتفسير بالرأي، وقع تقسيم التفاسير إلى تفاسير بالمأثور وتفاسير بالرأي، وفي هذا التقسيم نظر، وذلك في أمرين:

الأول: أنه قَلّ أن تترك التفاسير المعتبرة أقوال السلف، بل تحرص على حكايتها، ومع ذلك تجد أن بعض هذه التفاسير حُكِمَ عليه بأنه من التفسير بالمأثور والآخر من التفسير بالرأي[1].

والصواب أن يقال: إن المفسر الفلاني مكثر من الرواية عن السلف مكثر من الاعتماد على أقوالهم، والآخر مقلّ من الرواية عنهم أو الاعتماد عليهم.

الثاني: أن من حُكِمَ على تفسيره بأنه من التفسير بالمأثور قد حِيفَ عليه وتُنُوسي جهده الخاص في الموازنة والترجيح بين الأقوال التي يذكرها عن السلف، وأشهر مثالٍ لذلك إمام المفسرين ابن جرير الطبري، حيث يعدّه من يقابل بين التفاسير بالمأثور والتفسير بالرأي من المفسرين بالأثر، وهذا فيه حكم قاصرٌ على تفسير الإمام ابن جرير، وتعامٍ أو تجاهلٌ لأقواله الترجيحية المنثورة في كتابه.

هل التفسير منسوب إليه أم إلى من يذكرهم من المفسرين؟!

فإذا كان تفسيره هو؛ فأين أقواله وترجيحاته في التفسير؟!

أليست رأياً له؟

أليست تملأ ثنايا كتابه الكبير؟!

بل أليست من أعظم ما يميّز تفسيره بعد نقولاته عن السلف؟!

إن تفسير ابن جرير من أكبر كتب التفسير بالرأي، غير أنه رأي محمود؛ لاعتماده على تفسير السلف وعدم خروجه عن أقوالهم، مع اعتماده على المصادر الأخرى في التفسير.

كما أن تفسيره من أكبر مصادر التفسير المأثور عن السلف، وفَرْقٌ بين أن نقول: فيه تفسير مأثور، أو أن نقول: هو تفسير بالمأثور؛ لأن هذه العبارة تدل على أنه لا يذكر غير المأثور عن السلف، وتفسير ابن جرير بخلاف ذلك؛ إذ هو مع ذكر أقوالهم يرجّح ويعلّل لترجيحه، ويعتمد على مصادر التفسير في الترجيح.

ولكي يَبِين لك الفرق في هذه المسألة: وازن بين تفسيره وتفسير عَصْرِيّهِ ابنِ أبي حاتم (ت: 327هـ) الذي لا يزيد على ذكر أقوال السلف، وإن اختلفت أقوالهم فلا يرجح ولا يعلق عليها، أليس بين العالمين فرق؟

---

[1] انظر على سبيل المثال محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) وتقسيمه التفاسير بين المأثور والرأي من غير أن يورد ضابطاً يمكن التعويل عليه في هذا التقسيم، وقد قلّده آخرون في هذا من غير استدراك ولا تعقيب.

المحاضرة الثّالثة عشر: التّفسير البيانيّ للقرآن

حقيقة التّفسير البيانيّ:

التفسير البياني يتوقف – في حقيقته – على إبراز الجمال البياني الذي يتمثل في نظم الآيات، وإدراك وجوه التناسق بين الألفاظ والكلمات، وقد انجذب إلى جماله البياني حتى المنكرون في عهد البعثة المحمدية.. يدل عليه ما عبر عنه الوليد بن المغيرة حين سمع النبي صلّى الله عليه وسلم يتلو القرآن فإذا به يقول: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر"[1]، وقصة إسلام عمر رضي الله عنه تبقى هي الأخرى دلالة على الجمال البياني للقرآن، والصحابي الشهير مصعب بن عمير الذي أسلم على يديه الكثير من الأنصار بالمدينة قبل أن يتوافد إليها المسلمون مع نبيهم، وهو يقول عن مدى تأثرهم ببيانه الفاتن: " فُتحت الأمصار بالسيوف، وفُتحت المدينة بالقرآن"[2]. والنثر القرآني المسجع وعرضه البارع لا يضاهيه كتاب ولا تأليف، وهو بذلك مازال– ولا يزال– مظهرًا للإعجاز الإلهي الذي وجم أمامه العرب القدماء، وهم زعماء الأدب وأمراء البيان، وقد حاول بعضهم أن يأتوا بمثله، إلا أنهم ما بلغوا معشار عشره من حيث الفصاحة والبلاغة، وإلى هذه الحقيقة يشير العلامة سيد قطب بقوله: "كيف استحوذ القرآن على العرب، وكيف اجتمعوا على الإقرار بسحره"؟[3] ، ثم هو بنفسه يجيب عن هذا السؤال قائلا: إن السحر القرآني الذي ينبثق من صميم النسق القرآني هو الذي جعله يستحوذ على العرب.

والتحدي الإلهي المتمثل في الآية: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) – يونس: 38– يبقى تحديا على حاله بدون إجابة إلى الآن وإلى الأبد.. وانطباعات المفكر الأوروبي الشهير غوته"Goethe" تبلور مدى تأثير الكتاب المنزل حتى في قلوب المنكرين والجاحدين، وهو يقول: "حين يتصدى واحد لدراسة القرآن فإنه ينفر منه في أول أمره، إلا أنه لا يلبث أن يتأثر به، ثم نرى هذا الكتابَ يحيّره أيما تحيّر، وفي نهاية المطاف يغلب عليه".

ومن جهة أخرى فإن التفسير البياني يتوقف إلى حد كبير على الثروة اللفظية للغة العربية التي قد بلغت أوجها من الرقي والازدهار وقت نزول القرآن، وذلك بعد تداولها جيلا عن جيل، واللغة العربية التي جاء بها القرآن لا تخضع تمامًا للترجمة إلى أي لغة في العالم، إذ لا يوجد بين اللغات المحلية والعالمية ما يحمل معناه مستلهمًا لروحه ومستوعبًا لعظمته، وجميع الترجمات القرآنية الموجودة في مختلف اللغات لدينا تنم عن هذا القصور البشري.. والله غالب على أمره.

وقد تصدى كثير من المفسرين منذ القدم للوقوف على جوانبه البيانية، وفي طليعتهم أبوعبيدة (210) صاحب كتاب "مجاز القرآن"، وقد أشار إلى مجال عمل هذا التفسير قائلًا: هو الحس اللغوي الفني والإدراك النقدي لطبيعة المعنى،

---

[1] تفسير ابن كثير– الجزء الرابع– ص 430.

[2] اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر– ص 869.

[3] التصوير الفني في القرآن الكريم– سيد قطب– ص 17.

والإحاطة بتاريخ العرب علومًا وشعرًا، والتوسع في مفهوم النحو.. والإمام الجاحظ (225) الذي كتب "نظم القرآن"، شخصية بارزة بهذا الخصوص، وكتاب "تأويل مشكل القرآن" لصاحبه ابن قتيبة عمل قيم كذلك، وجاء أبوسليمان حمد بن محمد الخطابي (388) بعمله الجليل "النكت في إعجاز القرآن"، وكتاب "دلائل الإعجاز" للعالم الكبير عبدالقادر الجرجاني مشهور في التفسير البياني، وقد قطع الإمام الزمخشري (538) شوطًا كبيرًا في هذا المضمار بعمله القيم "الكشاف"، وكذلك ابن عطية الأندلسي بعمله "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، والعلامة أبوحيان (745) الذي ألف "البحر المحيط"، والإمام النسفي (1310) صاحب "مدارك التأويل"، والعلامة البيضاوي صاحب "تفسير البيضاوي".. كلهم أعلام بارزون في هذا المجال.

خطوات التّفسير البيانيّ:

ومن المتأخرين في هذا المجال: د.عائشة عبدالرحمن الملقبة باسم "بنت الشاطئ"، وعملها: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، وكذلك أستاذها الشيخ أمين الخولي، والمفسر الهندي المشهور العلامة حميد الدين الفراهي صاحب تفسير "نظام القرآن"، والأستاذ أمين أحسن الإصلاحي صاحب كتاب "تدبر قرآن" (أردية)، ومنهم د.محمد رجب البيومي صاحب "خطوات التفسير البياني"، ويرافقه في مسيرته د.حفني محمد شرف صاحب كتاب "إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق"، والشيخ محمد متولي الشعراوي له كتاب "من نبض الرحمن في معجزة القرآن".

ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة ما أشارت إليه د.عائشة عبدالرحمن في موضوعية التفسير البياني وأهمية النهوض به من قبل الباحثين والعلماء، وهي تقول: "لكل لغة روائع من آدابها، تعتبرها النماذج العالية لذوقها الأصيل، والمثل الرفيعة لفنها القولي، وقد عبرت الأجيال منا تتجه إلى نصوص مختارة من شعر العربية ونثرها، ونحن أصحاب الدرس الأدبي شُغلت الجمهرة منا بالمعلقات والنقائض والمفضليات، ومشهور الخمريات والحماسيات والمراثي والمدائح والغزليات ومأثور الرسائل والأمالي والمقامات، شغلنا بهذا ومثله عن القرآن الكريم، الذي لا جدال في أنه كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة"[1].

ويشير العلامة حميد الدين الفراهي بهذا الصدد إلى ضرورة وجود عمود رئيسي لكل سورة يبنى عليه معاني كل آياتها، وهو الركيزة الأساسية للاطلاع على الترابط المعنوي، وهو يقول: "العمود هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، وهو أهم الأمور بيانًا"[2]. وكان يقول بضرورة بناء هيكل البلاغة العربية على أساس ما ورد من روائع البيان في الآيات القرآنية، وكان له أسلوب خاص في تفسير القرآن، وكان يتدبر في القرآن متحررًا من الروايات التفسيرية والإسرائيليات، ويؤكد على ربط الآيات ونظم القرآن بوجه خاص، وكان يعتقد بأنه لا يمكن أن يكون كلام الله خاليًا

[1] التفسير البياني للقرآن- د.عائشة عبدالرحمن- 1/13.

[2] رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن- الدائرة الحميدية- ص 91.

عن النظم والترتيب، ويعتمد في تحقيق المفردات وتأويل الآيات على القرآن نفسه، وبعد ذلك على الأدب العربي، وخاصة الأدب الجاهلي.

والتفسير البياني إذن عبارة عن اتجاه خاص يهدف إلى فهم إعجاز القرآن وإيضاح نواحيه البلاغية بعيدًا عن شطط التأويل والأقاويل، كما يستهدف تذوق أسرار البيان بالنظر الدقيق لمدلولات ألفاظ القرآن، وعلى أساس التدبر الشامل للنظم القرآني الذي تلمح من خلاله المعجزة البيانية الخالدة، وينبغي إدراك وجوه التناسق والتشابه بين كلمات القرآن وألفاظه، ومدى توازنها وترتيبها، ومدى مناسبتها لما سبقها وما لحقها من الآيات. والمفسرون من هذا القبيل تعرضوا بدراساتهم لمختلف جوانب البيان والإبداع التي تضمنها القرآن، ومنهم من وقف على إعجازه البياني من حيث علم النحو والدلالة، ومنهم من نظر إليه من حيث علم الأصوات، وآخرون فسروه من حيث روعته الإبداعية، وقد أشبع القرآن رغبات هؤلاء وأولئك.

بعض ملامح التفسير البياني:

وتتمثل هذه الرائعة في تركيب كلمات آياتها ووضعها في مكانها اللائق، والكلمات هي اللبنات الأساسية في بناء اللغة، وهي تمنح المؤلف القوة والجمال، ومجرد الخيال لا يغني عن المبدع كما لا تنفعه أفكاره ورؤاه إذا كان ضعيفًا في اختيار الكلمات ذات الرنين، بل أكثر من ذلك تحتل قدرة التعبير الطلق الصدارة في تقييم الأعمال الإبداعية، والاختيار الإلهي لكلمات القرآن ينبغي أن نستعرضه من هذا المنطلق، وهو لم يكن مجرد كتاب أدبي، بل هو أدب كله، لا يبلغ أدب الأدباء مبلغه من الحسن والجودة والجمال والتأثير، ولو بدلنا كلمة مكان كلمة لاختل النظام القرآني وتدهور نغمه، وعلى سبيل المثال: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ) – المدثر: 49-51-، وكلمة قسورة في الآية جاءت لمعنى الأسد، ولو وضعنا الثانية مكان الأولى علما بأنها أقرب إلى الأفهام، فإن التوازن بين الآيات يفسد، وتفقد الآية روعتها وجمالها، كما أن تركيب هذه الكلمات يعرض أهوال الحمر التي تحاول التخلص من قبضة الأسود.. وكل كلمة تلمع في السياق القرآني كما تلمع النجوم، هذا بفضل مناسبتها ووضعها في مكانها اللائق.

وكذلك التناسق والترتيب بين الكلمات: (السمع والأبصار والأفئدة) ورد ذكرها في سياق النعم الإلهية التي يتنعم بها كل إنسان، والآية الواردة فيها هذه الكلمات تبقى أوسع مجالًا للجمال البياني من حيث اللغة والعلوم، والله ذكر السمع في كل هذه الآيات في أولها، علما بأن حاسة السمع هي التي تعمل أولًا في الطفل الجنين، ولا يعمل العقل والفكر إلا بعد فترة من ميلاده، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الجنين يستطيع أن يحس الأصوات الخارجية، كما أنها وردت مفردة، وفي ذلك أيضًا سر من أسرار الخلق الإلهي، إذ إن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أكثر من صوت واحد في الوقت الواحد، بينما يستطيع أن يرى أشياء كثيرة بلمح البصر، والفؤاد هو الآخر يحتوي على مختلف العواطف والمشاعر.

كلمات تنطق بمعانيها:

وكذلك حتمية المعنى لبعض الكلمات القرآنية التي قد لا يوجد مثيلها في اللغة، مثل كلمة المطر والغيث، الأولى وردت في القرآن للدلالة على العذاب والأذى، أما إذا كان يريد به السقيا فإنه الغيث في البيان القرآني. والجوع والسغابة كلتاهما لمعنى واحد، إلا أن الأولى جاءت في القرآن للإشارة إلى العذاب.. ومن هذا القبيل كلمة اللب والعقل، وكلتاهما متقاربتان ومترادفتان في اللغة، إلا أن الأولى في السياق القرآني تدل على العقل الصافي المصدق لآيات الله والمنيب إليه في جوف الليل وبياض النهار، بينما مجرد العقل يشوبه كفر وتشكك وإنكار، وليس كل عقل لبّا، بينما يكون كل لبّ عقلا. وكذلك كلمات: جحد وأنكر، الأول (جحود) هو إنكار الظاهر، والثاني إنكار ما ظهر منه وما بطن.

التوازن العددي

وفي صدد ذكر بعض الكلمات يوجد تمام الانسجام بينها من حيث الواقع والوظيفة، وقد اكتشف الباحثون وجوه التوازن العددي بين الكلمات القرآنية الخاصة، للدلالة على الواقع الذي تجسده أو لإيضاح وجوه التساوي بين كلمة وأخرى، ومن هذا القبيل كلمات: الشهر واليوم، جاءت الأولى اثنتي عشرة مرة والثانية ثلاثمائة وخمسًا وستين مرة، مطابقًا للنظام الكوني لتحديد السنة. وكذلك كلمة الحياة ومقابلها الموت، كل واحد منهما ورد 145 مرة للدلالة على ضرورة الاهتمام بالموت وما بعده، كما يهتم الإنسان بأمور حياته. وكذلك كلمة الزكاة والبركة كلتاهما وردت 32 مرة، وسر ذكر الزكاة مصحوبة بالبركة واضح، إذ لا توجد البركة حين تنعدم الزكاة.

والتفسير البياني الذي يكشف النواحي البلاغية والنكت الإبداعية لآيات القرآن كفيل بتوكيد قدسية القرآن وعظمته، وأنه لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

المحاضرة الرّابعة عشر: ظاهرة الإعجاز في القرآن

إعجاز القرآن[1]:

الإعجاز مأخوذ من (عجز) يقال: عجز عن الأمر، وأعجزت فلانا ألقيته عاجزا، وأعجزه الشيء فاته، والإعجاز الفوت والسبق وجاء في القرآن قوله تعالى:(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ) – سبأ 5- .أي: ظانين أنهم يعجزوننا، (وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ).- العنكبوت 22- أي: بقادرين على معاندة أمر الله.

وقال الزمخشري: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والمعجزة أمر خارق للعادة مقترن بالتحدي، وقال القاضي عبد الجبار بأنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به..

وإعجاز القرآن يعني قدرة القرآن على أن يكون في أعلى درجات التميز والتفوق في الفصاحة والبيان والأحكام بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثله، وقد تحدى العرب به، لأنهم كانوا يعتزون بفصاحتهم وبيانهم، فتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، فإن عجزوا عن ذلك فلا مناص من تسليمهم بأنه كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

قال تعالى:(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) –الإسراء: 88-.

وهذه الآية جاءت بعد آيات سابقة تحدى الله بها أفصح الفصحاء في العربية بأن يأتوا بحديث مثله، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله[2].

ولو كان بإمكان العرب أن يأتوا بمثله لما قبلوا هذا التحدي ولما استسلموا له، ولما رضخوا لحكم الله، فلما عجزوا عن كل ذلك أدركوا أن القرآن كلام الله.

أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، قال: وماذا أقول، فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره[3].

قال الزركشي في البرهان: "ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله معجز، واختلفوا في إعجازه فقيل: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وأن العرب كلفت في ذلك ما لا تطيق، وفيه وقع عجزها، والجمهور على أنه

[1] علوم القرآن لعتر ص 191 وما بعدها. المدخل للنبهاني ص219 وما بعدها.
[2] سورة البقرة الآية 23.
[3] الاتقان 5/4.

إنما وقع بالدال على القديم وهو الألفاظ، فإذا ثبت ذلك فاعلم أنه لا يصح التحدي بشيء مع جهل المخاطب بالجهة التي وقع بها التحدي"[1].

ثم قال بعد ذلك الإعجاز في القرآن العظيم إما أن يعني بالنسبة إلى ذاته أو إلى عوارضه من الحركات والتأليف أو إلى مدلوله أو إلى المجموع أو إلى أمر خارج عن ذلك، لا جائز أن يكون الإعجاز حصل من جهة ذوات الكلم المفردة فقط لأن العرب قاطبة كانوا يأتون بها، ولا جائز أن يكون الإعجاز وقع بالنسبة إلى العوارض من الحركات والتأليف فقط... ولو كان الإعجاز في الإعراب والتأليف المجرد لم يعجز صغيرهم عن تأليف ألفاظ معربة فضلا عن كبيرهم، ولا جائز أن يكون بالنسبة إلى المعاني فقط، لأنها ليست من صنيع البشر، وليس لهم قدرة على إظهارها، من غير ما يدل عليها، ولا جائز أن تكون إلى المجموع لأنا قد بينا بطلانه، بالنسبة إلى كل واحد، فيتعين أن يكون الإعجاز لأمر خارج عن ذلك[2].

أقوال العلماء في وجوه الإعجاز:

اختلف العلماء في وجوه الإعجاز، ومنطلق الاختلاف أن كل فريق ذهب إلى تلمس الإعجاز في جانب من جوانب التميز والتفوق في القرآن، فمنهم من وجد الإعجاز في البلاغة والفصاحة، ومنهم من وجد الإعجاز في الإخبار عن أمور الغيب، مما لم يكن معروفا عند العرب، ومنهم من وجد الإعجاز في قصص الأولين، ومنهم من رأى في النظم والتأليف والتركيب والإحكام البياني مظهرا من مظاهر الإعجاز.

وهذا التعدد في الرأي دليل على الإعجاز، فالقرآن الذي وجد فيه اللغوي قمة في الإبداع، ووجد فيه البلاغي قمة في الفصاحة، ووجد فيه الفقيه تشريعا رائع الأحكام، ووجد فيه الفيلسوف رؤية شمولية للكون والحياة والإنسان، لابد إلا أن يكون معجزا في كل شيء، فالإعجاز إعجاز تحد، وهو مطلق ولا يتوقف عند حدود اللغة والبيان والفصاحة والبلاغة..

وإعجاز القرآن إعجاز مطلق، فهو معجز بكل ما فيه، ومن الخطأ أن نتصور الإعجاز في جانب محدود، فالإعجاز الإلهي إعجاز متعدد الجوانب، لا يتوقف عند حدود الزمان أو المكان، وهو مستمر إلى يوم الدين، ويمتد الإعجاز لكي يشمل حفظ الله للقرآن، ولعل الحفظ هو الإعجاز الأكبر والأوضح والأكمل، ولولا حفظ الله للقرآن لما استطاع أن يظل على امتداد السنين وتكاثر الفتن فيها، واختلاف الرأي والاجتهاد وتعدد الطوائف موحد النص، واضح العبارة، متميزا في رسمه، يحتكم إليه في كل موقف، ويحتج فيه في كل حكم، ويجد الجميع فيه ما يبتغون من هداية وإرشاد، وما وقع من خلاف فيه من حيث الجمع والرسم والقراءة، لم يتجاوز حدود الخلاف اليسير الذي لم يثر أية ريبة في سلامة النص القرآني وقطعية آياته وسوره..

ومع هذا فإننا نورد أقوال العلماء في وجوه الإعجاز، كما أوردها الزركشي في البرهان وهي[3]:

[1] البرهان للزركشي 92/2.
[2] المرجع نفسه 93/2.
[3] المرجع نفسه.

أولا: الإعجاز بالصرفة:

ومعنى الإعجاز بالصرفة أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته فلم يقدروا على ذلك، ولولا الصرفة لما أعجزهم القرآن، ولما أعجزهم أن يأتوا بمثله، وهذا القول منسوب إلى ابن إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، وهو زعيم الفرقة النظامية، وأحد أبرز رجال الفكر الاعتزالي، وكان شيخا للجاحظ، وتوفي في خلافة المعتصم.

وهذا الرأي واضح البطلان، فاسد المعنى، لأنه يجعل الإعجاز خارجا عن نطاق القرآن ذاته، متعلقا بأمر خارجي يتمثل في حفظ القرآن عن طريق صرف العرب عن الإتيان بمثله، لا لأنهم لا يقدرون على ذلك، ولكن لأن الله أراد ذلك، وبمقتضى هذا الرأي فإن القدرة على الإتيان بمثل القرآن أمر ممكن من الناحية الواقعية ولكن الله صرف العرب عن ذلك، وهذا الرأي مخالف لظاهر الآية القرآنية في قوله تعالى:(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً).

والواضح من الآية أن الإعجاز ثابت ولو اجتمع الإنس والجن وتعاونوا على ذلك، لأن الإعجاز كامن في القرآن نفسه، ولا يتوقف الإعجاز في أي عصر، ومبدأ الإعجاز بالصرفة هو إلغاء للإعجاز، وإلغاء للخصوصية القرآنية، واعتبار الإعجاز أمرا خارجيا..

ونقل السيوطي عن أبي بكر الباقلاني في كتابه الإعجاز:"وما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه، وقال أيضا: وليس هذا بأعجب من قول فريق منهم أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ولا بأعجب من قول آخرين، أن العجز وقع منهم، وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله، وكل هذا لا يعتد به"[1].

ثانيا: الإعجاز بالتأليف الخاص به:

والمراد بالتأليف الخاص بالقرآن اعتدال المفردات من حيث التركيب والوزن وسمو معانيه، بحيث يكون القرآن في أعلى درجات العلو والتفوق والتميز، ونسب هذا القول الزركشي لكمال الدين الزملكاني صاحب البرهان في إعجاز القرآن..

وذهب ابن عطية وجمهور العلماء إلى أن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه الإعجاز في هذا أن الله أحاط بكل شيء علما ولا يمكن الإتيان بمثل القرآن، وهو أمر خارج عن قدرة البشر، ولو كان بإمكان العرب أن يأتوا بمثله وهم في موطن التحدي لفعلوا ذلك، ولكنهم كانوا عاجزين وهم أعرف الناس بعجزهم...

وذهب أبو بكر الباقلاني إلى أن وجه الإعجاز هو ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم، ولهذا لم يتمكنوا من معارضته، وليس الإعجاز القرآني متمثلا في أصناف البديع الموجود في الشعر، فذلك ليس مما يخرق العادة، وإنما يتمثل الإعجاز في النظم المتميز للقرآن الذي

[1] الاتقان 7/4، نقلا عن إعجاز القرآن للباقلاني ص43-44 بتصرف.

ليس له مثال يحتذى، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا، ثم تساءل الباقلاني عما وقع التحدي به، أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غيره؟ وأجاب بأن التحدي تمثل في إتيانهم بمثل حروف القرآن من حيث النظم والأحكام[1]..

وقال بعض الأئمة: ليس الإعجاز المتحدى به إلا في النظم لا في المفهوم، لأن المفهوم لا يمكن الإحاطة به ولا الوقوف على حقيقة المراد به..

ثالثا: الإعجاز بالأسلوب:

وهذا النوع من الإعجاز يتمثل بالفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة، من جميع العيوب، ونقل كل من الزركشي والسيوطي هذا الرأي عن الإمام فخر الدين الرازي صاحب مفاتيح الغيب، وهذا الرأي قريب من رأي الباقلاني وابن عطية، ونقل الزركشي عن ابن الحسن حازم القرطاجني صاحب منهاج البلغاء أن الإعجاز فيه من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمرارا لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المحدود، ثم تعرض الفترات الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه..

وقال (الخطابي) في كتابه بيان إعجاز القرآن: أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة، لكن لما صعب عليهم تفصيلها صغوا فيه إلى حكم الذوق والقبول عند النفس.. وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور، منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني والحوامل، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ.. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة، لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا منه الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقديم في أبوابه والرقي في أعلى درجاته.. فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني، من توحيد الله تعالى وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته في تحليل وتحريم وحظر وإباحة ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه[2].

رابعا: الإعجاز بما يتركه في النفس من مشاعر:

ذهب بعض العلماء إلى أن الإعجاز شيء لا يمكن التعبير عنه فهو يدرك ولا يمكن وصفه، كالملاحة واستقامة الوزن، تدرك ولا يمكن وصفها، وتدرك بالفطرة السليمة وبإتقان علوم المعاني والبيان وهذا الاتجاه يعتبر الإعجاز أمرا يدرك

[1] البرهان 99/2.
[2] المرجع نفسه 103/2.

بالذوق السليم والعلم الصحيح، وتدركه الفطرة، ويشعر فيه الإنسان بالفرحة والسرور.

قال أبو حيان التوحيدي في البصائر:

لم أسمع كلاما ألصق بالقلب وأعلق بالنفس من فصل تكلم به بندار بن الحسين الفارسي، وكان بحرا في العلم، وقد سئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال: هذه مسألة فيها حيف على المفتي وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان، فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودللت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوله وهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده[1].

خامسا: الإعجاز بالإخبار عن الغيب:

ذهب البعض إلى أن الإعجاز يتمثل في إخبار القرآن عن الغيب كقوله تعالى في أهل بدر:(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) ، (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)، وردّ العلماء على هذا القول بأن الآيات التي لا خبر فيها لا إعجاز فيها وهذا رأي باطل...

سادسا: الإعجاز بكل ذلك:

وهذا القول يعتبر الإعجاز القرآني لا ينحصر في أسلوب أو نظم أو إخبار بغيب أو بما يتركه في النفس من أثر، فالإعجاز شامل وكامل، وهو معجز بكل خصوصيات القرآن، الأسلوبية والتعبيرية والتصويرية والتشريعية والرؤية الشمولية، واعتبر الزركشي أن هذا القول هو قول أهل التحقيق.. فمن الخصوصيات القرآنية الروعة التي يتركها في قلوب السامعين، والخشية التي يشعر بها قارئ القرآن، ومنها جمعه بين صفة الجزالة والعذوبة، ولا تجتمعان غالبا في كلام البشر، لأن جزالة الألفاظ لا توجد إلا بما يشوبها من القوة، والعذوبة تحتاج إلى السلاسة والسهولة، وقد جمع القرآن بين الصفتين، وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز...

وفي موطن الإعجاز لا نملك إلا أن نعتبر الإعجاز القرآني إعجاز تميز وتفوق وسمو وعلو في كل جانب من الجوانب، ولا نهاية لهذا الإعجاز، ولا يحده زمان ولا مكان، ولا يحيط به عقل بشري ولا يمكن إدراك أبعاده ومعرفة خصوصياته.

قال القاضي عياض اليحصبي المتوفى سنة 544 هـ في كتابه (الشفا): اعلم أن القرآن منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام.

الثاني: صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته.

الثالث: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات.

الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السابقة.

[1] البرهان 100/2.

ثم قال: ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية لا يعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، ومنها أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب[1].

عناية العلماء بإعجاز القرآن:

أجمع العلماء على أن القرآن هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم، واختلفوا في أوجه الإعجاز القرآني، وتعددت الآراء والبحوث وتكاثرت المصنفات التي درست الإعجاز في القرآن، ولكل رأيه واجتهاده ولكل رؤيته وفهمه، ومن حق كل باحث وعالم أن يدلي بدلوه، وأن يحاول إبراز ما يراه من أوجه الإعجاز...

وإعجاز القرآن سر لا تدركه العقول، وتقف أمامه حائرة عاجزة، ترى الإعجاز وتحسه وتدركه، ولا تعرف سره وكنهه، فالقرآن من حيث ألفاظه كلام عربي محكم، يفهمه كل عربي، وليس فيه غموض أو إبهام، فكيف يقع الإعجاز في كلام اعتاد العرب سماعه ولماذا وقفوا أمامه حائرين مندهشين مستسلمين، يتحداهم، ويبالغ في التحدي، فلا يستطيعون مجاراته ولا الإتيان بمثله، ولا بعشر سور مثله، ولا بآية من آياته.

ووقف العلماء يبحثون عن سر الإعجاز وحقيقته، فإذا عجزوا عن إدراك ذلك قالوا بأن الله قد صرف العرب عن الإتيان بمثله ومبدأ الصرفة ما هو إلا تسليم العجز، وما هو بالرأي، ولذلك قال جمهور العلماء بفساد هذا الرأي، وأخذوا يبحثون عن أوجه الإعجاز في الألفاظ حينا وفي المعاني حينا آخر، وينظرون في النظم القرآني فيجدون نظما متميزا متفوقا يروقك ويؤنسك، فالألفاظ جميلة معبرة، ملائمة للمعاني، وكأنها أنزلت لكي تصور تلك المعاني أدق تصوير وأجمله.

ومن أقدم الذين كتبوا في الإعجاز في القرن الثالث الهجري أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة 255 هـ، وكان من أبرز كتاب عصره وأكثرهم شهرة، وعرض لمعجزة القرآن في إطار كتبه ومؤلفاته الكثيرة ورسائله العديدة التي تناول فيها معجزة محمد صلى الله عليه وسلم وتتمثل هذه المعجزة بالقرآن، المعجزة الخالدة، التي تحدى بها النبي صلى الله عليه وسلم العرب، وعجز العرب عن مواجهة التحدي، والعاقل يتساءل عن أسباب عجز العرب عن مواجهة التحدي، هل لأنهم أدركوا عجزهم، فاستسلموا له لئلا ينكشف عجزهم وتقوى حجة (محمد) عليهم، وقال الجاحظ متسائلا: وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ثم لا يبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم، وهم أشد خلق الله أنفة، وأفرطهم حمية.

ولم يتكلم الجاحظ عن وجوه الإعجاز، ولم يؤلف في أوجه الإعجاز كما فعل غيره كالباقلاني والجرجاني والرازي والخطابي والرماني، واكتفى ببيان المعجزة القرآنية، محللا ظاهرة عجز العرب عن مواجهة التحدي، متسائلا عن أسباب تخوفهم من هذه المواجهة، وهم أصحاب فصاحة وبلاغة، وأهل خطابة وشعر وبيان وكانت لغتهم في أعلى درجات القوة، فكانوا يملكون من أسباب المواجهة ما لا تملكه الأجيال اللاحقة، وهذا التوقف والتخوف دليل على عجز القوم من كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم.

ثم قال بعد ذلك:

[1] الاتقان 17/4.

فمحال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين، مع التقريع بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر[1].

وهذا الكلام المنسوب إلى الجاحظ لا يمكن أن يستفاد منه أن الجاحظ قد أخذ بمبدإ الإعجاز بالصرفة الذي نسب إلى (النظام) فما نسب إلى الجاحظ يؤكد عجز العرب عن التحدي، لسمو الأسلوب القرآني وعظمة هذا الأسلوب ورقيه وتميزه عن الأساليب العربية فالعرب ما استسلموا وهم قادرون على التحدي، وإنما استسلموا لأنهم وجدوا القرآن معجزة حقيقية لا سبيل إلى إنكارها، فالقرآن معجز بكل ما فيه من أسلوب ومعاني وأحكام وتشريع، وقدرة على التأثير وجمال في النسق القرآني وحكمة في الخطاب وروعة في البيان..

فمن رأى المعجزة في القرآن نظر إلى القرآن نظرة شمولية متكاملة، فأسلوبه لا ينفصل عن معناه، ومعناه لا ينفصل عن الأسلوب وكل لفظة في القرآن معبرة ومحكمة ودالة، ولا يمكن أن تستبدل لفظة بلفظة أو مفردة بأخرى، تلك عظمة القرآن، وهذا هو إعجازه الحقيقي، فمن بحث في الإعجاز فقد بحث في جزئية صغيرة دالة على الإعجاز، فالبلاغة وحدها لا يمكن أن تكون وجه الإعجاز، والفصاحة وحدها لا يمكن أن تكون هي كل الإعجاز، والمعاني مستقلة لا يمكن أن تكون منفصلة عن أسلوب القرآن، فالإعجاز القرآني إعجاز متجدد متنوع واضح، يتمثل في عجز الإنسان عن الإتيان بمثل القرآن أو بمثل آية من آياته، فإذا أتى بآية تحاكي الأسلوب القرآني لفظا وبلاغة فإن من المستحيل أن تحاكيه وتماثله جمالا وتأثيرا ومعاني محكمة ومفردات دالة وألفاظ معبرة..

وبالرغم من كل ما كتب في الإعجاز القرآني من كتب وما ألّف فيه من مصنفات، وما ذكر فيه من وجوه، فإن الكلمات القليلة التي كان الصحابة والتابعون ينطقون بها في مجال القرآن من حيث عظمة هذه المعجزة وسمو هذا الكتاب كانت أكثر تعبيرا وأوضح دلالة وأبرز للإعجاز وأسمى من كل ما كتب وقيل، فالإعجاز القرآني هو إعجاز كتاب أنزله الله على رسوله، ولا يمكن أن يدرس إعجازه في إطار بلاغته ولغته ومفرداته، فذلك مما تأباه العامة بفطرتهم فكتاب الله معجز وكفى...

ولعل هذا ما دفع الجاحظ ومن عاش في زمانه أو من سبقه إلى ذكر إشارات واضحة إلى الإعجاز من غير خوض في أوجه الإعجاز كما أوردها علماء الإعجاز الذين أفردوا لهذا العلم مصنفات مستقلة.

وليس في هذا إدانة لمنهج علماء الإعجاز ولا يعني هذا التقليل من أهمية ما كتبوه وصنفوه، فلقد قاموا بجهد عظيم وخدموا هذا العلم خدمة كبرى، وإنما أود أن أشيد بمنهج الأولين السابقين من العلماء الذين أدركوا من أوجه الإعجاز الشمولي المتكامل ما لم يدركه اللاحقون، وكان فيما كتبوه وسجلوه أبلغ تعبير عن عظمة منهج الأولين في الفهم، وهو منهج يستوعب حقائق الإسلام، ويعطي لكل شيء حقه، ولا يترجم الظواهر العظيمة إلى معايير مادية تتمثل في صور بلاغية، ومفردات لغوية، ومعاني قاموسية.

إن الإنسان يفقه بقلبه وفطرته، وبطريقة تلقائية، ما لا يفقهه أصحاب العقول الكبيرة من فلاسفة وفقهاء ورجال لغة

[1] الاتقان 4/4.

وبيان، وما يفقهه العامة أصحاب الفطرة السليمة أدق وأعمق وأصفى، وهو أقرب للحق وأسمى.
ومع هذا.. فإن من واجبنا أن ننصت لصوت هؤلاء العلماء وهم يضعون معاييرهم العقلية، ويصوغون رؤيتهم العلمية في وجوه من الإعجاز متعددة، وأن نعترف لهم بما كتبوه وسجلوه، وأن نثني على عملهم العظيم، وفي نفس الوقت فإن من واجبهم أن يعترفوا بأن الفطرة السليمة تدرك بالبداهة الإعجاز القرآني، وترى فيه الإعجاز العظيم الذي يتحدى كل أعمال البشر..
وسوف أذكر مناهج بعض العلماء الذين كتبوا في الإعجاز وسوف نجد أن ما قاموا به من أعمال علمية جديرة بأن تكون في موطن الإشادة والإعجاب، وهذا يدل على مدى عناية علماء الإسلام بالقرآن الكريم.

الإعجاز عند الخطابي:

ممن كتب في الإعجاز أبو سليمان محمد بن إبراهيم الخطابي المتوفى سنة 388 هـ، وكان من أوائل الذين كتبوا في الإعجاز ولا شك أنه تأثر بما كتبه الجاحظ من قبله، واطلع على ما كتبه أبو إسحاق النظام أحد أئمة المعتزلة الذي قال بأن الله تعالى قد صرف العرب عن معارضة كلام الله، وهذا أمر مقبول، إذا تضمن الإقرار بعظمة القرآن من حيث أسلوبه ونظمه ومعانيه، فإن الله تعالى قد تحدى العرب بالقرآن، وأعجز العرب عن الإتيان بمثله، والعجز هنا عجز مادي لتميز القرآن وعظمة أسلوبه ودقة معانيه وعجز محاط بهالة من الرهبة والخشية تمثل في حفظ الله لهذا القرآن، وتعهد بحماية الدعوة وانتصار لرسوله، وفكرة الصرفة ليست مرفوضة من الأساس إذا جاءت في إطارها الصحيح المتمثل في رعاية الله لهذه الرسالة وتدعيم موقفها ومناصرة المسلمين، ولقد ثبت أن الله تعالى قد صرف عن المسلمين أخطارا ودفع عنهم أعداءهم، وشتت شملهم كلما اجتمعوا على الإسلام، وأغشى أبصارهم في مواقف كثيرة، وحمى القرآن من العبث ووحد به كلمة العرب.
وكل قول إذا وقع تفسيره في إطاره الضيق أخل بفكرة الإعجاز وأساء لعظمة القرآن، فمن قال بالصرفة لا يختلف عمن قصر الإعجاز على الصور البلاغية والألفاظ اللغوية من حيث تضييق الخناق على مفاهيم واسعة وإطارات للتفكير ذات أبعاد شمولية، فما أضيق ما ذهب إليه اللغويون والبلاغيون من تفسير الإعجاز، وما أوهن هذا الإعجاز الذي لا يعجز عنه البشر، فالإعجاز أعم وأشمل وأسمى وأعلى من كل وجوه الإعجاز المذكورة في كتب الإعجاز.
ولقد تصدى جمهور العلماء للرد على (النظّام)، وأبانوا عن فساد رأيه وبطلان مذهبه، وهذا أمر لا خلاف فيه، فلا يمكن القول بانتفاء الخصوصية القرآنية الذاتية في الأسلوب والنظم واللغة والبلاغة، ولا يمكن القول أيضا باقتصار الإعجاز على الجوانب اللغوية، ومن رد على (النظّام) ومدرسته وجب عليه أن يرد على المدارس اللغوية أيضا، لأنها نظرت للإعجاز نظرة ضيقة، وسدت الأبواب أمام الظاهرة القرآنية المعجزة.
ولقد أنكر الخطابي فكرة الإعجاز بالصرفة، واعتبر أن الإعجاز لابد إلا أن يكون في إطار الأمور الخارجة عن مجاري العادات فالتحدي لا يكون إلا فيما هو خارج عن القدرة الإنسانية، ولابد إلا أن يكون في إطار النظم والأسلوب، بحيث جاء القرآن جامعا بين الفخامة والعذوبة، وهما ضدان، واجتماع الضدين في النظم القرآني فضيلة وبينة ومعجزة، وأشار إلى أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أحسن المعاني، من

توحيد الله وتنزيه له وبيان لأحكام شرعه من تحليل وتحريم وحظر وإباحة وأمر بمعروف ونهي عن منكر، ودعوة إلى مكارم الأخلاق، والإتيان بكل ذلك والجمع بين مختلف الغايات أمر يعجز عنه البشر، ولا تبلغه قدرتهم، ولذلك زاغت أبصارهم واضطربت أفئدتهم فقالوا أنه سحر أو شعر، من حيث عجزهم عن الإتيان بمثله.

وأشار الخطابي في كتابه (بيان إعجاز القرآن) إلى تأثير القرآن على النفوس، فإذا سمعه المؤمنون خروا سجدا وبكيا، واستقرت نفوسهم واطمأنت قلوبهم لكلام الله، وأصابهم من مشاعر الروعة والبشرى ما جعلهم في أمن نفسي وروحي.

وقال (الخطابي) في ذلك مشيرا إلى عظمة المعجزة القرآنية وشمولها[1]:

"قلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم.. ويتمثل هذا الجانب في صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما أو منشورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، وفي الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص من القرآن إليه" وأورد أمثلة من تاريخ الدعوة تؤكد عظمة هذا الدور المؤثر، فكم من أعداء للإسلام لما سمعوا القرآن اهتزت قلوبهم وتحولوا من عداء إلى إيمان ودخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم.

.الإعجاز عند الرمّاني:

ركز (الرماني) المتوفى سنة 382 هـ وكان معاصرا للخطابي على الجانب البلاغي في القرآن، واعتبر البلاغة من أهم مظاهر الإعجاز، وهناك علاقة بين البلاغة والتأثير النفسي، فالبلاغة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أداة لإيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وأورد (الرماني) الخصوصيات البلاغية في القرآن، كالإيجاز والتشبيه والاستعارة والتجانس والمبالغة والتعريف، وأورد شواهد من القرآن تؤكد عظمة الأسلوب البلاغي في القرآن، مبرزا جانب الإعجاز البلاغي...

وقال في ذلك:

"وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة والبلاغة والإخبار عن الأمور المستقبلة ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة"، ثم قال: "ونقض العادة هو أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة، وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام"[2].

الإعجاز عند الباقلاني:

يعتبر القاضي أبو بكر الباقلاني- المتوفى سنة 403 هـ أول- من كتب كتابا في الإعجاز بطريقة مستقلة، وما كتب قبله كان في إطار بيان معاني الإعجاز في رسائل عامة أو مقدمات مؤلفات أو بيان.

[1] ثلاث رسائل في الإعجاز ص 44.
[2] الاتقان 15/4.

وكتب كتابه (إعجاز القرآن) وهو من دعائم هذا العلم وأركانه، تحدث في بدايته عن المعجزة، وقرر أن القرآن هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى، وهناك معجزات أخرى، ومعجزة القرآن هي معجزة تحدي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمعجزات الأخرى.

وكان القاضي (الباقلاني) إمام عصره، وحجة زمانه، له مؤلفات كثيرة، ويدور معظمها حول العقيدة والدفاع عن مذهب الأشاعرة، وله أسلوب متميز يقوم على أساس الحوار والنقاش وكان قوي الحجة واسع الثقافة، وعاش في فترة زمنية كانت المذاهب الفكرية متعددة ومتنافسة، وألف كتابه (إعجاز القرآن) في إطار دفاعه عن قوام الدين وعماد التوحيد وبرهان صدق النبوة.

واعتبر أن القرآن فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء بأنه يدل على نفسه بذاته، بخلاف الكتب الأخرى فلا تدل على نفسها إلا بأمر زائد عليها، لأن نظمها ليس معجزا.

ويرجع الإعجاز في نظر القاضي الباقلاني إلى أمور ثلاثة:

-1إنباؤه عن الغيب.

-2أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.

-3بداعة النظم.

وترجع بداعة النظم إلى أمور:

أولا: مخالفته لما عهد العرب من أساليب السجع والشعر، وهذا ينفي عن القرآن هذه الأوصاف.

ثانيا: اشتماله على الفصاحة والبلاغة وعدم التفاوت في مستوى هذه الفصاحة في الآيات والسور، مما يؤكد سمو النظم القرآني وعظمة أسلوبه وتتضح هذه الظاهرة في مقارنة النص القرآني بالنصوص العربية التي كان العرب يفخرون بها في مجال الشعر والنثر، وبعد المقارنة يبرز القرآن في أسلوبه واضح الإعجاز متميز الخصائص رائع النظم مشرق العبارة بليغا في اختيار مفرداته.

ثالثا: بناء القرآن من الأحرف التي بني عليها كلام العرب وهذا من الإعجاز، فهذه الأحرف في فواتح السور دالة على معاني في الإعجاز، ولها آثار واضحة في الخطاب القرآني، وذات دلالات متعددة.

رابعا: ابتعاد القرآن عن الألفاظ الوحشية المستكرهة والغريبة المستنكرة، واستخدام الكلمات السهلة والعبارات الواضحة، وهذا من الإعجاز.

وأكد الباقلاني أن القرآن منزل بلسان العرب ولكنه نزل على وزن يفارق سائر أوزان كلامهم ولو كان من بعض ما ألفوه من نظم وشعر لعرفوا أن صاحبه قد برع فيه وتقدم، ولكنه جاء من غير جنس كلامهم، وليس يخرج الحذق في الصنعة إلا أن يؤتى بغير جنسها وما ليس منها وما لا يعرفه أهلها، وهذا الكلام يؤكده كلام الوليد بن المغيرة الذي قال لقومه: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقوله محمد شيئا من هذا.

وقال في ذلك:

نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب

خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وذكر الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم والكلام الموزون غير المقفى والكلام المسجع وغير المسجع، وأكد أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق، وأن المتأمل إذا تأمله تبين له خروجه عن أصناف كلام العرب وأساليب خطابهم وأنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه.

ولا يتصور أن يكون لحكيم هذه الفصاحة والغرابة والتصريف البديع والنظم المحكم في كتاب طويل كالقرآن، وتنسب لبعض الحكماء كلمات وأمثال رائعة، ولبعض الشعراء قصائد متينة رفيعة من حيث النظم من وضوح التكلف في معظم ذلك، وجاء القرآن فصيحا في كل آياته عظيما في نظمه بديعا في تآليفه، وليس فيه تفاوت ولا تباين في مختلف الموضوعات في القصص والمواعظ والتشريع والوعيد والأخلاق.

قال الباقلاني:

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها.. فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره.. وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميعا ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف.. لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الدرجة الدنيا.

وقال أيضا:

ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي أودعوها في الشعر لأنه ليس مما يخرق العادة، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به، كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة، وله طريق تسلك، فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا[1].

ورد الباقلاني على من قال بوجود السجع في القرآن بما يلي[2]:

1- لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ولو كان داخلا فيها أو واحدا منها لم يقع بذلك إعجاز.

2- لو كان في القرآن سجع لجاز أن يقولوا هو سجع معجز ويتبع ذلك أن يقولوا شعر معجز.

3- إن السجع مما يألفه الكهان من العرب، والكهانة تنافي النبوات، وإذا كان القرآن قد نفى عن نفسه صفة الشعر فلابد أن تنتفى صفة السجع أيضا.

4- قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن كلموه في شأن آية الجنين كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح فاستهل، فمثل ذلك يطل، قال لهم» :أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟.«

5- أكد الوهم فيمن قال بسجع القرآن، وقد يكون الوهم على مثال السجع وإن لم يكن سجعا، وفي اللفظ يتبع المعنى اللفظ، بخلاف القرآن فاللفظ تابع للمعنى.

6- جاءت بعض الآيات على سبيل السجع ولم تأت مقصودة ومتكلفة.

---

[1] الاتقان 8/4.

[2] انظر: الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن للدكتور عبد الرؤوف مخلوف ص 210، طبعة مكتبة الحياة بيروت.

7- لو كان الذي في القرآن سجعا لكان مذموما مرذولا لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام.

8- لو كان ما في القرآن سجعا لما تحير العرب فيه، ولكانت الطباع تدعو إلى معارضته لأن السجع غير ممتنع عليه.

9- من قال بالسجع لابد من القول بفكرة الصرفة التي قال بها (النظّام) وأمثاله الذين قالوا بأنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف.

10- من جوز السجع في القرآن فقد سلم بوقوع الخبط في طريقة النظم، ويكون قد استهان ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذي وقع به التحدي.

وردّ بعض العلماء على ما ذهب إليه الباقلاني من مبالغة في نفي صفة السجع في القرآن، ولم يوافقوه فيما ذكره من حجج ليست مسلمة، وهي قابلة للنقاش، فالسجع ليس كله رذيلة وهو أمر تحكمه قواعد معروفة، ولو كان مذموما كله ما جاء في القرآن في بعض الآيات، وليس هناك ما يمنع القرآن من أن يستخدم السجع في بعض الأحيان من غير تكلف فيه لزيادة التأثير على السامع، وقال أبو الحسن القرطاجني: كيف يعاب السجع على الإطلاق وإنما أنزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب فوردت الفواصل بإزاء ورود الأسجاع.

والسجع المكروه والمذموم هو سجع الكهان، وهو سجع الجاهلية، والإسلام حارب الجاهلية وهدم قيمها الفاسدة، وقضى على ما ألفته من عادات ضارة، وسجع الكهان مما حاربه الإسلام ولكن السجع كأسلوب تعبيري ليس رذيلة، فإذا جاء من غير تكلف فهو من فصيح الكلام، وليس للسجع قاعدة ثابتة لا تتغير فإذا جاء السجع في بعض آيات القرآن فهو سجع محمود، ومن أساليب اللغة الفصيحة، ومن خصائص السجع القرآني أنه غير متكلف، وجميل التأليف وموسيقاه اللفظية مؤثرة ورائعة وليس له وزن واحد، وفاصلة ثابتة، فقد ينتقل من وزن إلى وزن مغاير، ومن فاصلة إلى أخرى، لتوضيح المعنى، ولإعطاء الإعجاز.

والسجع ليس هو أسلوب القرآن، فالقرآن لا يوصف بالسجع ولكن لا يمكن نفي السجع فيه، فالسجع موجود في القرآن، وهو من أساليب العرب، وجاء السجع في القرآن متميز الملامح مؤثرا، واستخدم القرآن أساليب أخرى لا توصف بالسجع، فالأسلوب يتغير بتغير المواقف والمقاصد، وهذا من الإعجاز، فالإعجاز هو اختيار الأسلوب الأفضل والأفصح والأجمل لتحقيق الهدف المنشود، من بيان حكم أو دعوة إلى إقناع أو تخويف أو ترغيب أو إيراد مثل أو إخبار عن أمم سابقة أو استنتاج عبرة.

والخلاف كما يبدو بين من يقول بوجود السجع في القرآن أو نفيه هو خلاف لفظي، وهو خلاف مصطلح، فإن شئت أن تسميه سجعا فهو كذلك، وهو سجع محمود وهو متميز لا تكلف فيه، وإن شئت أن تسميه تسمية جديدة فمن حقك أن تفعل ذلك، ومن حقك أن تطلق عليه كلمة السجع أو تنفيها عنه.

الإعجاز عند القاضي عبد الجبار:

ويعتبر ما كتبه القاضي عبد الجبار[1] امتدادا لما كتبه الباقلاني في الإعجاز، نظرا لأن القاضي عبد الجبار كان معاصرا للإمام الباقلاني، وكان مهتما بعلم الكلام، ويعتبر كتابه "المغني" من أبرز كتب علم الكلام، وجاء كتابه في الإعجاز في إطار دراساته الكلامية، وهو جزء من كتابه "المغني" ولهذا ظهرت آثار آرائه الكلامية في مجال دراسته للإعجاز.

ويبدو أنه لا يميل إلى اعتبار الإعجاز في أوجه البلاغة وإنما يتمثل الإعجاز في جزالة اللفظ وحسن المعنى، ولا عبرة بالقوالب والأشكال البلاغية، لأن المعول عليه في مجال الفصاحة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالصورة البلاغية إذا جاءت في موطنها مؤكدة جزالة الألفاظ مبينة جمال المعاني فهي من الإعجاز، وإذا لم تعبر عن هذه المعاني ولم تحقق هذه الغايات فقد تكون متكلفة سيئة الأثر، واستبعد القاضي عبد الجبار أن تكون الصرفة التي قال بها بعض علماء الكلام من أوجه الإعجاز، واعتبر العرب من أقدر الناس على معرفة ما يقع به التحدي، وقد تحداهم القرآن، وأدركوا معنى هذا التحدي، ولا يمكن لهذا التحدي أن يكون إلا في مجال الفصاحة والبيان.

وقد تعرض القاضي عبد الجبار لموضوع التحدي بالكلام وأكد أن الفصاحة في الكلام لا تظهر في اللفظة الواحدة والكلمة المفردة، وإنما تظهر عند ضم الكلمات إلى بعضها فيقع التناسب والتجانس، ويتحدد في هذا الإطار موقع اللفظة من حيث دورها في التعبير عن المراد، والكلمة ينظر إليها من زاويتين:

الأولى: نظرة في حال إفرادها، ونظرة أخرى في حال نظمها مع غيرها، ولابد من تحديد مفهوم الكلمة بذاتها من حيث وضعها عند أهل اللغة، ومفهومها في إطار موقعها في الجملة من حيث موقعها الإعرابي، ومفهومها حين تأخذ مكانا خاصا في الكلام، من حيث المعنى المستفاد منها...

والكلمة لا يمكن أن تفهم إلا في إطار موقعها العام في الكلام، والوظيفة التي تؤديها، فقد تفهم المعاني، وتتحد المفردات، ثم يقع التباين في مدى الفصاحة والبيان والإفهام والتأثير، وهنا نكتشف عظمة الدور الذي يؤديه اختيار الكلمة وموقعها، وهنا تبرز الفصاحة..

وهذا يؤكد اهتمام القاضي عبد الجبار بالنظم، والنظم كما أورده كالثياب المنسوجة تتفاضل بمواقع الغزل وكيفية تأليفه وتنسيقه، مع أن الغزل في حقيقته لا يتغير، والكلام يتفاضل أثره ويتباين معناه بحسب قوة المتكلم، وقدرته على اختيار مواقع الكلام من حيث التقديم والتأخير، وهذا يحتاج إلى قدرة ذاتية تعطي صاحبها فصاحة وقوة بيان، ولا يتم ذلك إلا بتأييد من الله وإلطاف ورعاية وتوفيق.

وهذا المنهج يقودنا إلى إقرار فكرة الإعجاز القرآني، من خلال توافق اللفظ والمعنى، وتكاملهما في أداء الدور المطلوب فيهما، فالتأليف هو الدور الأهم في فن الفصاحة، بحيث تكون اللفظة دالة على المعنى المراد، وتقع في الموقع المناسب لها، ولهذا عند ما يقع التحدي بالكلام فلابد من أن يكون تأليف هذا الكلام في أعلى درجات الترتيب والتنسيق وحسن التركيب بحيث يكون الكل في موقعه المناسب، من حيث اختيار الكلمة، واختيار موقعها في الجملة، لكي يؤدي هذا التركيب المحكم الغاية المطلوبة. ولهذا يتفاضل الفصيح من الكلام بتفاضل الكتّاب، مع أن الألفاظ واحدة، فالأقدر على التأليف هو الأفصح، ولا نهاية للفصاحة، ويقع الإعجاز فيما وقع التحدي به والعجز عن الإتيان بمثله.

[1] هو أبو الحسن عبد الجبار الأسد بادي المعتزلي، وكان شيخ القضاة بمصر، وكان من أبرز علماء المعتزلة وأكثرهم حجة، وله كتاب "المغني" أشهر مؤلفاته وهو موسوعة في علم الكلام توفي سنة 415هـ بمدينة الريّ.

والقاضي عبد الجبار يركز على أهمية الفصاحة في الإعجاز ولا يتصور الإعجاز إلا بالفصاحة، والفصاحة عنده لا تتوقف عند حدود النظم ولا علاقة لها بالشكل والقالب، من حيث كون الكلام شعرا أو نثرا مسجوعا، فالنظم عامل في الفصاحة له أثره الواضح ولكنه ليس العامل الوحيد، ولابد في الفصاحة من تكامل حسن المعنى وجزالة اللفظ، ومتى تحقق هذا الشرط في الكلام كان فصيحا، سواء كان شعرا أو نثرا، وكلما زادت معالم هذا التوافق في اللفظ والمعنى اتضحت الفصاحة وبرزت في الكلام.

ولعل القاضي عبد الجبار في تركيزه على معنى الفصاحة واعتبارها نتاج عاملين أساسيين، جزالة في اللفظ وحسن في المعنى، إنما يرد فيه على أبي بكر الباقلاني، الذي اعتبر الإعجاز متمثلا في مغايرة جنس الكلام لأساليب العرب وأجناس كلامهم، ولهذا اتجه اهتمام الباقلاني إلى نفي التجانس بين القرآن وكلام العرب، وشدد النكير على من قال بوجود السجع في القرآن، لأن السجع من جنس كلام العرب، والقرآن جاء مغايرا لأساليب العرب، فلا يستقيم أن يوصف أسلوب القرآن بالسجع ولو جاءت أوزانه مماثلة لأوزان السجع في الأسلوب العربي.

ويؤكد هذا الاختلاف بين كل من القاضي عبد الجبار وأبي بكر الباقلاني أن كلّا منهما ينظر للإعجاز من زاوية مغايرة لما ينظر منها الآخر، فالقاضي عبد الجبار لا ينظر للإعجاز من زاوية الخروج عن مألوف كلام العرب، ولهذا لم يحرص على نفي السجع في القرآن، فالأمر لا يعنيه سواء سمي سجعا أو غير سجع، وإنما يعنيه أولا إثبات الإعجاز عن طريق الفصاحة، وطريقها واضح وهو جزالة اللفظ وحسن المعنى، وهذا معيار لا نملك إلا أن نشيد بدقته، لأنه معيار موضوعي، يقيم أمر الإعجاز على معايير موضوعية لا تتصور الفصاحة إلا بها، وليس أدل على الإعجاز من تلاقي (لفظ) بلغ الذروة في الجزالة والقوة و (معنى) بلغ القمة في جودة المعنى ودقته وسلامته، وهنا تبرز تساؤلات حول أهمية المعايير البلاغية ويقف القاضي عبد الجبار أمام هذه المعايير وقفة موضوعية فلا يعتبرها من الإعجاز ما لم تتحقق الشروط الموضوعية المتمثلة في جزالة اللفظ وحسن المعنى، فالصورة البديعية ليست كافية وحدها لإثبات الإعجاز ما لم تكن معبرة عن المعايير الموضوعية للفصاحة.

الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني:

يتميز الجرجاني[1] عن كل من القاضي عبد الجبار وأبي بكر الباقلاني باعتماده على الذوق البياني والفطرة النقية الصافية التي مكنته من استكشاف آفاق جديدة من معاني الإعجاز لم يدركها من كتبوا في الإعجاز في إطار مقاييسهم المنطقية ومعاييرهم الكلامية ونظرتهم الفلسفية، فالإعجاز يدرك بالعقل من خلال مقاييسه الثابتة ويدرك بالفطرة والذوق من خلال اكتشاف آفاق جمالية في النص القرآني.

واعتبر (الملاءمة بين الألفاظ)، هي أساس الفضيلة في البيان العربي، فاللفظة لا تستمد مكانتها من ذاتها، ولو كانت كذلك لتساوى الكتاب والأدباء في مكانتهم، ولكن يقع التفاضل بين هؤلاء بحسب قدرتهم على إيجاد التلاؤم بين اللفظة واللفظة التي تليها، فالكلمة الواحدة قد تكون حسنة في موضع ومستقبحة في موضع آخر، مقبولة في عبارة ومرفوضة في عبارة أخرى، وفرق الجرجاني بين حروف منظومة وكلم منظومة، فنظم الحروف تواليها في النطق ونظم

[1] هو أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة 471هـ.

الكلم مراعاة المعاني في النظم وترتيبها بطريقة ملائمة ومعبرة، كالنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير، بحيث يكون الوضع والترتيب خاضعا لمعايير وأقيسة ومرجحات بحيث لو تم استبدال هذا الترتيب بغيره لما صح النظم ولما استقام أمره.

وقال في شرح ذلك:

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر[1].

وقال بعد ذلك:

والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل وكيف يتصور أن يقصد به إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصياغة والتحبير والتفويف والنقش وكل ما يقصد به التصوير[2].

وأكد هذا المعنى بقوله:

"واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"[3].

ثم ختم عبارته بقوله:

"وإذا كان لا يكون في الكلم نظم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته بان بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك"[4].

وتساءل الجرجاني في معرض حديثه عن إعجاز القرآن، ماذا أعجز العرب، هل أعجزهم لفظ القرآن أم أعجزهم معناه، لا شك أن ما أعجز العرب (هو تلاقي اللفظ والمعنى معا)، فلا مجال للإعجاز في لفظ دون معناه، ولا مجال للإعجاز في معنى دون لفظ، فالإعجاز هو نتاج علاقة تكاملية بين اللفظ والمعنى، ولا يمكن تصور الفصاحة في إطار لفظ دون معنى، فالصورة البيانية هي نتاج لفظ معبر ومعنى يجسد الصورة، ويعطي للألفاظ أبعادها وصورها وجمالها، فاللفظة المفردة لا يمكن أن تكون معجزة، لأنها تظل قائمة صامتة لا تنطق والمعنى العظيم هو الذي ينطق اللفظ ويجعل

[1] دلائل الإعجاز للجرجاني ص 41 (طبع مطبعة السعادة بمصر).
[2] المرجع نفسه ص 43.
[3] المرجع نفسه ص 44.
[4] المرجع نفسه ص 47.

له لسانا معبرا، وعند ما يتحدث أهل البيان عن الألفاظ الجميلة والألفاظ القلقة والمستكرهة، فإنهم لا يقصدون على وجه التأكيد مجرد اللفظ، فاللفظ لا يمكن وصفه بدقة إلا في إطار ملاءمته لمعناه المراد، وحسن انسجامه مع الألفاظ الأخرى في الجملة الواحدة بحيث يصبح الكلام معبرا أحسن تعبير عن معنى مراد.

وبالرغم من اهتمام الجرجاني بالتلاؤم والانسجام والتوافق بين اللفظ والمعنى فإنه لا يتجاهل أهمية اللفظ، فاللفظ هو الأداة الأولى للتعبير، وهو الجانب الواضح في النظم، وهو معيار ضروري لجودة الكلام وفصاحته وبيانه، فاللفظة تجد مكانها المناسب والمعنى الدقيق يبحث عن لفظ معبر، ولولا ذلك اللفظ لما ظهرت المعاني ولما برزت الفصاحة، فاللفظة تقع في الجملة معبرة مجسدة مصورة مبينة ناطقة، وكأنها تصور المعنى تصويرا، وترسم الملامح بدقة، فتكون أكثر قدرة على التأثير، فلا يستطيع القارئ أو السامع إلا أن يجد فيها المعنى الذي يريد أو تحدثه هي عن المعنى المراد.

وفي مثل هذه المواقف لا يملك الإنسان إلا أن يقف بإعجاب أمام اللفظة المعبرة عن المعنى، وينظر في النظم فيجد التلاؤم والتكافل والتعاهد بين اللفظة واللفظة، وكأن كل لفظة تقود إلى أخرى مجسدة الصورة البيانية، معبرة عن معنى أراده الكلام.

من هنا بدأ الإعجاز:

إعجاز لفظ معبر مختار وإعجاز معنى عظيم، ويبرز الإعجاز في تلاؤم عجيب بين ذلك النظم والمعنى، بحيث تمتد الأبصار شاخصة مترقبة يقظة، تتابع النظم الدقيق المعجز.

لو رأى العرب كلمة نابية لأمسكوا بها، ولما سمحوا لها بأن تفلت من أيديهم، واحتجوا بها على ما يريدون من الإساءة للقرآن، ولكنهم لم يجدوا في القرآن إلا كل ما يدعوهم للإعجاب به من حيث اللفظ والمعنى، ومن حيث التوافق والتلاؤم.

وقال الجرجاني معبرا عن حسن الملاءمة بين اللفظ والمعنى: "وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها في النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم"[1].

[1] دلائل الإعجاز ص39-40.

المصادر والمراجع :

1- البرهان في علوم القرآن. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي 794هـ تحقيق أبي الفضل الديمياطي دار الحديث القاهرة 1427هـ 2006م

2- الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي 911هـ تحقيق مركز الدراسات القرآنية مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

3- تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن. لمحمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة الرياض بالاشتراك مع دار ابن عفان القاهرة 1426هـ 2005م

4- مختصر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. صلاح الدين أرقه دان، دار النفائس بيروت الطبعة الثانية 1407هـ - 1987م

5- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن. عبد الرحمن بن الجوزي 597هـ تحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية بيروت 1408هـ 1987م

6- جمال القراء وكمال الإقراء. أبو الحسن علم الدين علي بن محمد السخاوي 643هـ تحقيق: مروان العطية ومحسن خرابة، نشر دار المأمون للتراث دمشق 1418هـ 1997م

7- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز. شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بابن شامة المقدسي (665هـ) تحقيق: طيار آلتي قولاج، نشر دار صادر بيروت سنة 1395هـ 1975م

8- مناهل العرفان في علوم القرآن. الشيخ عبد العظيم الزرقاني تحقيق الدكتور نواف الجرّاح دار صادر بيروت 1429هـ 2008م

9- لطائف البيان في علوم القرآن. الدكتور مصطفى آكرور ، دار الإمام مالك الجزائر 1424هـ 2004م

10- مباحث في علوم القرآن. الدكتور محمد الدراجي، دار قرطبة الجزائر 1431هـ 2010م

11- محاضرات في علم التفسير ومناهج المفسرينز الدكتور محمد دراجي. منشورات غبريني الجزائر 2006م

12- محاضرات في علوم القرآن. د. غانم قدوري الحمد، دار عمار عمان، 1423هـ 2003م

13- علوم القرآن بين البرهان والإتقان دراسة موازنة. الدكتور حازم سعيد حيدر؛ مكتبة دار الزمان المدينة المنورة الطبعة الثانية 1427هـ 2006م

14- علوم القرآن تاريخه ...وتصنيف أنواعه . الدكتور مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ؛ مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية العدد1 ربيع الآخر 1427هـ

15- مباحث في علوم القرآن. مناع القطان ، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الحادية عشر 2000م

16- المدخل لدراسة القرآن الكريم . الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة. دار اللواء للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الثالثة: 1407هـ 1987م

17- الواضح في علوم القرآن. د.مصطفى ديب البغا و الأستاذ محيي الدين ديب متو، دار العلوم الإنسانية بدمشق بالاشتراك مع دار الكلم الطيب بدمشق 1418هـ 1998م
18- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير. الدكتور محمد بن لطفي الصّباغ، المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثالثة سنة 1410هـ 1990م
19- دراسات في علوم القرآن. د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار القاهرة الطبعة الثانية 1419هـ 1999م
20- بحوث منهجية في علوم القرآن. موسى إبراهيم لإبراهيم، دار عمّار عمان، الطبعة الثانية 1416هـ 1996م
21- علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير. الدكتور محمد صفا شيخ إبراهيم حقي، مؤسسة الرسالة بيروت 1425هـ 2004م
22- المقدمات الأساسية في علوم القرآن. عبد الله بن يوسف الجُدَيْع،مركز البحوث الإسلامية ليدز بريطانيا توزيع دار الريان سنة 1422هـ 2001م
23- دليل كتب علوم القرآن المسندة المطبوعة حتى عام 1427هـ . للأستاذ فؤاد بن عبده أبو الغيث مسؤول وحدة المعلومات بمركز الدراسات والمعلومات القرآنية ، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية العدد 2 ذو الحجة 1427هـ
24- موسوعة علوم القرآن. الدكتور عبد القادر منصور، دار القلم العربي حلب سنة 1422هـ 2002م
25- تحقيق ودراسة كتاب التحبير في علم التفسير. رسالة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة إعداد الطالب: زهير عثمان علي نور إشراف الدكتور محمد شوقي خضر 1404هـ - 1983م جامعة أم القرى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
26- مقدمة في أصول التفسير. شيخ الإسلام ابن تيمية 728هـ ، دار الفجر الجزائر1422هـ 2001م
27- شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية. الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تخريج تحقيق وتعليق إسلام منصور عبد الحميد، دار البصيرة الإسكندرية 2003م
28- التفسير والمفسرون. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة القاهرة. الطبعة السابعة 2000م
29- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ) تحقيق محب الدين الخطيب ترقيم وفهرست محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة السلفية القاهرة الطبعة الأولى 1400هـ
30- صحيح مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري 261هـ طبعة بيت الأفكار الدولية الرياض 1419هـ 1998م
31- جامع البيان عن تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري 310هـ بتحقيق محمود محمد شاكر مكتبة ابن تيمية القاهرة
32- الرسالة. أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي 204هـ تحقيق وتعليق أحمد شاكر (بدون بيانات(
33- الأضداد. محمد بن القاسم الأنباري 327هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية لبنان 1411هـ

1991م
34- مختار الصحاح. زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، ترتيب: محمود خاطر، تحقيق: حمزة فتح الله، مؤسسة الرسالة1414هـ 1994م
35- المصباح المنير.أحمد بن محمد الفيومي المقرئ، مكتبة لبنان بيروت 1990م
36- مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر بيروت
37- مجمل اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر 1414هـ 1994م أساس البلاغة. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الفكر بيروت 1426هـ - 1427هـ 2006م
38- كتاب العين. الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث العربي بيروت 1426هـ 2005م
39- المدخل إلى علوم القرآن الكريم، محمد فاروق النبهان، دار عالم القرآن، حاب، 2005م.
40- علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، مطبعة الصباح، دمشق، الطبعة الأولى، 1414هـ/1993م.
41- علوم القرآن، عبد الله شحاته، دار غريب، القاهرة، 2002م.

فهرس الموضوعات

- مقدّمة 02
- المحاضرة الأولى: بين يدي علوم القرآن؛ مفهوما وموضوعا.....03
- المحاضرة الثانية: نشأة علوم القرآن وفوائده.....09
- المحاضرة الثالثة: ظاهرة الوحي.....13
- المحاضرة الرابعة: كيفية نزول الوحي، وأول وآخر ما نزل.....20
- المحاضرة الخامسة: جمع القرآن الكريم؛ المراحل والكيفيات.....27
- المحاضرة السادسة: المكي والمدني في القرآن الكريم؛ الضوابط والخصائص.....37
- المحاضرة السابعة: علم أسباب النزول؛ تعريفه وطرق معرفته وفوائده.....42
- المحاضرة الثامنة: النسخ في القرآن الكريم.....46
- المحاضرة التاسعة: القصة القرآنية؛ الخصائص والأهداف.....53
- المحاضرة العاشرة: القراءات القرآنية.....63
- المحاضرة الحادية عشر: التفسير؛ تاريخه وطرقه.....77
- المحاضرة الثانية عشر: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.....81
- المحاضرة الثالثة عشر: التفسير البياني للقرآن الكريم.....100
- المحاضرة الرابعة عشر: ظاهرة الإعجاز في القرآن.....104
- فهرس المصادر والمراجع.....120
- فهرس الموضوعات.....123